سورة عبس

مكية، وهي ثلاث وأربعون آية مع البسملة

سورة عبس مكية (روح المعاني). وهي من أوائل السور نـــزولاً باتفاق المستشرقين أيضا، حيث اعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" مما نـــزل في البداية المبكّرة للبعثة النبوية. واعتبرها "وليام موير" من أوائل السور التي أظهرها محمد للكافرين (تفسير "ويري"). مما يعني أن هؤلاء المستشرقين يرون أن السور الأوائل لم يتم الإعلان عنها فور نـــزولها، وإنما بعد فترة. فـــ"موير" يرى أنها نـــزلت بعد بضعة السور الأوائل.

يربط هذه السورة بما قبلها رابطان: رابط مباشر قريب، ورابط آخر يتعلق بمضمونها العام. والرابط القريب هو أن الله تعالى قد قال في أواخر السورة السابقة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾(النازعات:٤٦).. أي لن ينفع إنذارك إلا من يخاف يوم الحساب، أو يخاف عاقبة أعماله. علمًا أن ضمير المؤنث في قوله تعالى ﴿يَخْشَاهَا﴾ راجع إلى الساعة، ونحن نفسّر الساعة بالمعنيين؛ الحياة بعد الموت وغلبة الإسلام أو غلبة القرآن، فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ إشارة إلى الأمرين كليهما.. أي لن ينفع إنذارك إلا مَن يخاف الحياة بعد الموت، أو يخاف عاقبة أعماله ويرى أنها ستؤدي إلى هزيمته وانتصار الإسلام؛ ولذلك قال الله تعالى الآن في سورة عبس: عليك أن تكون أكثرَ اهتمامًا بالذين يريدون الاستماع إلى الحق ويستحقّون قبوله. والمرء يستحق قبول الحق لعدة أسباب أوّلُها: الأعمال.. أي أن يخشى الله تعالى بحسب إيمانه، أو يكون جادًّا في سعيه، فيُصغي إلى أمور الدين وأحكامه بعناية واهتمام، وثانيها: الاستحقاق القومي.. وأعني بذلك أنه كلما بَعث الله نبيًّا صدّقه الفقراء عادة.. أي عند بعثة نبي هناك احتمال يبلغ تسعين بالمئة أن فقراء القوم يتعلمون الدين بسرعة، أما إذا توجهت جماعة النبي بدعوته إلى الأثرياء ضاق نطاق

رقي دينه وانتشاره. لا شك أن الأغنياء أيضا يؤمنون، ولكن نسبتهم ضئيلة جدا، وقد بيّن القرآن الكريم هذا الأمر في أماكن عديدة.

أما علاقة هذه السورة بما قبلها من حيث مضمونها العام، فيكمن في أن الله تعالى أخبر في السورة السابقة أنه قد قرّر ازدهار الإسلام، مشيرًا إلى الأسباب التي سيتخذها لهذا الغرض، فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا... فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، أما في هذه السورة فبيّن الله تعالى أنه وحده يعلم موعد الساعة، وأنه وحده يعلم أولئك القوم الذين ستتم على أيديهم ساعة غلبة الإسلام، والذين سيكونون "النازعات والناشطات والسابحات فالسابقات فالمدبرات". وكأنه تعالى أوضح للنبي ﷺ أنه لن يعطيه قومًا يُعَدُّون في الظاهر صناديد القوم ودواهيهم ونشطاءهم وأذكياءهم. ذلك لأنه كان هناك احتمال أن يظن المؤمنون أنه تعالى يعني بقوله ﴿والنازعات﴾ فلانًا وفلانًا من علية القوم ودواهيهم، فدحض الله تعالى هذه الفكرة وقال كلا، بل إننا كما احتفظنا بعلم الساعة، كذلك احتفظنا بعلم تلك النفوس السعيدة التي ستصبح نازعات ناشطات سابحات سابقات مدبرات، فلن تعرفوها بقياسكم. ستظنون أن فلانًا وفلانًا من القوم ذوو كفاءات عالية، ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة، إنما الله وحده يعلم بهم، كما يعلم وحده موعد الساعة، وسيأتي بهم في حينها أولاً بأول، والبحث عنهم لن يجديكم شيئًا.

من سنة الله المستمرة أنه لا ينصر دينه بالكبار المشاهير، إنما ينصره بأُناس يُعَزُّون بالدين في الحقيقة. إن الذين يقال عنهم إن الدين سيعزُّ بهم لو دخلوا فيه فلا يصلُحون للدين الحق أبدًا، إنما يصلُحُ للدين الحق قوم يقال عنهم إنهم عزّوا بالدين. عندما يُبعَث نبي، فليس أتباعُه هم الذين يدلّون الناس على الله تعالى قائلين: أيها الناس، آمنوا بالله، بل إن الله تعالى نفسه يشير إليهم ويقول: أيها الناس هؤلاء هم القوم الذين اخترتُهم لخدمة ديني.

إذًا، فهذه السورة تشرح هؤلاء ﴿النازعات﴾ وتبين كيف يتم انتخابها، وهي أن الله تعالى بنفسه يُظهِر هذه النفوس في الوقت الملائم. وتبين دراسة تاريخ الإسلام أن الله تعالى قد اختار لدينه نفس أولئك القوم الذين كان الأعداء معترفين بصدقهم

وصلاحهم، ولكن، لو أُعطيَ أهل الدنيا حقَّ الاختيار بحسب ظروف ذلك الزمن لما اختاروهم لهذه المهمة، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون الكفاءاتِ الكامنة في هؤلاء ضربًا من الخيال الغامض. فرغم أن أهل مكة كانوا معترفين بكفاءة أبي بكر ﷺ، إلا أنهم لم يختاروا للسيادة إلا أبا جهل وعتبة وشيبة، وليس ذلك إلا لأنهم اعتبروا صلاح أبي بكر صلاحا مبهما غامضا، بينما اعتبروا عتبة وشيبة وأبا جهل ذوي كفاءات عالية، ولنفس السبب لم يختر هؤلاء عمر ولا عثمان ولا علي ولا ابن مسعود ولا الزبير ولا طلحة وغيرهم ليكونوا سادة لهم. وكذلك قد اختار الله تعالى للإيمان أبا موسى الأشعري من اليمن وعبد الله بن سلام من اليهود، ولكن هل يمكن لأحد القول إن قومهما كانوا سيختارونهما للإيمان لو أُعطوا الاختيار. لا شك أنهم كانوا سيختارون الآخرين، إلا أنه مما لا يمكن إنكاره أن قلوب القوم كانت معترفة بصلاحهما اعترافًا مبهما.

باختصار، لم يكن يُتوقع من هذه الثُلّة أن تُحدِث أي انقلاب في القوم، ومع ذلك لم يقع الانقلاب إلا بأيديهم. أما الذين كان القوم يعقدون عليهم الآمال لإحداث الانقلاب فقد حُرموا منه. فهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا فيما يتعلق برقي الأُمة، وقد عولج في سورة "عبس" بوجه خاص، حيث بيّنت أنه عند فساد أُمة تختفي كفاءات أبنائها الحقيقية وتبرز فيهم كفاءات زائفة، ويفسد مزاج القوم جدًّا فلا يحبّون الخير الحقيقي، بل يحبّون الرياء والتصنّع والسير مع التيارات السائدة، ولا يختارون لهم زعيمًا حقيقيًا، بل يفضّلون زعيمًا يتبع تقاليدهم وعاداتهم، فيستحيل عليهم اختيار قائد حقيقي يقوم بإصلاحهم زمن الظلام. ذلك لأن فطرتهم تصبح مشوهة ممسوخة خاضعة لتقاليدهم الفارغة لا ترضى بهذا التغير الطيّب المخالف لتقاليدهم وعاداتهم، ولذلك قد جعل الله تعالى هذا الانتخاب في يده، لأنه ينظر إلى ما في القلوب لا إلى ما هو على الألسن.

رُبَّ قائل يقول هنا: إذا كان هؤلاء ذوي كفاءات في الواقع فلماذا لم يبرزوا بين القوم؟ والجواب أن الله تعالى يعلم أن ذلك راجع إلى عدم ملاءمة الظروف، لأن أحوال القوم تكون فاسدة، ومن المحال أن تنبت شجرة طيبة في أرض فاسدة، ومن

المحال أن يزدهر هؤلاء إلا أن يُنـــزَعوا من تلك الأرض الفاسدة. وقد أشير إلى ذلك في سورة النازعات، حيث بين الله تعالى أن هؤلاء مزوَّدون بالكفاءات فعلاً، ولكنهم في أرض فاسدة فلا يستطيعون أن ينبتوا فيها ويزدهروا، ولذلك نمهّد لهم الآن أرضًا جديدة، وسترون كيف تنكشف كفاءاتهم للناس. لما صار أبو بكر ﷺ خليفة للنبي ﷺ ذهب شخص إلى مكة، وحضر مجلسًا فيه والده أبو قحافة. فسأله عن أحوال المدينة، فأخبره بوفاة النبي ﷺ. فقال ماذا فعل المسلمون بعده؟ قال قد بايعوا رجلا منهم. فسأل: من يكون هذا الذي بايعوه؟ قال: أبو بكر. فقال أبو قحافة في حيرة: مَن هو أبو بكر هذا؟ فأجاب: ابن أبي قحافة. فقال: من أبو قحافة؟ قال: أنت. فبدأ أبو قحافة يذكر له أسماء القبائل المختلفة ويسأله: أبايعَ هؤلاء أبا بكر؟ قال: نعم، حتى قال: هل بايعَه بنو هاشم؟ قال: نعم. وكان أبو قحافة قد أسلم في الظاهر ولما يدخل الإيمان في قلبه، فأطرق رأسه برهةً وهو صامت ثم رفعه وقال: أشهد أن محمدا رسول الله. فكان هذا اليومُ يومَ صفاء إيمانه، حيث أصبح على بصيرة من صدق الإسلام.

فترى أنه ما كان ليخطر ببال أبي قحافة أبدًا أن ترضى جميع القبائل العربية بأبي بكر خليفةً وملكًا عليهم. وكان الرجل مصيبًا في تفكيره، لأن أبا بكر الذي قد ربّاه ورآه لم يكن ليصلح لذلك المنصب العظيم بادي الرأي، ولأن التربة التي كان أبو بكر ينبت فيها من قبل كانت غير منسجمة مع فطرته كلية، ولكن الله تعالى حين نـــزعه من تلك التربة وزَرَعَه في تربة أخرى ملائمة لفطرته، أخذ نباتُ روحه في النماء والازدهار حتى أصبح دوحة كبيرة. فإنك لو حاولتَ زرع شجرة المانجو مثلاً في منطقة كشمير فلن تنبت هناك، وإذا حاولت زرع شجرة التفاح في منطقة البنجاب فلن تؤتي ثمرًا جيدًا، كذلك فإن الأرواح الطيبة بحاجة إلى أرض طيبة تلائمها، والأرض الطيبة بحاجة إلى أشجار طيبة تلائمها. ففي أرض الكفر ما كان لينبت إلا أمثال عتبة وشيبة وأبي جهل، لا أبو بكر، وأما في أرض الإيمان فما كان لينبت إلا أبو بكر، لا عتبة ولا شيبة ولا أبو جهل، إذ كانوا أحقر شأنًا من العشب بل من الكلأ والحطام في هذه الأرض الطيبة. هذا هو المعنى الذي تشير إليه سورة

عبس، حيث بين الله تعالى فيها أنكم لا تستطيعون رؤية تلك النفوس الطيبة التي ستقوم بإشاعة الدين ونشره، والتي يصبح الإسلام غالبًا على يدها، فتسألون من أين تأتي تلك النفوس الطيبة التي ستصبح نازعات وناشطات وسابحات وسابقات ومدبرات، ومن الذي سيختارها؟ فها نحن نخبركم أننا نحن نختارها. وإنكم لا تقدرون على رؤية تلك النفوس الطيبة الآن لأن أرضكم لا تلائمها. إن أشجار الصلاح هذه مزروعة في أرضكم، وستجفّ لو بقيت فيها لعدم ملاءمتها لها، ولكنا سننزعها من هناك ونزرعها في الأرض التي تلائمها، فسترون كيف تصبح دوحات كبيرة رائعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿٢﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

عبس: عبَس فلان وجهَه: قَطَّبَه. (الأقرب)

تولّى: تولى عنه: أعرضَ عنه وترَكه. (الأقرب)

التفسير: يقال، بشأن نزول هذه السورة، أن عبد الله بن أم مكتوم حضَر مجلس النبي ﷺ ذات مرة، وكان قد آمن، أو كان مؤمنًا به ﷺ في قلبه إذا لم يكن قد بايعه في الظاهر، وكان عنده ﷺ صناديد مكة: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام بحماس رجاءَ أن يُسلِم بإسلامهم غيرُهم. فقال عبد الله بن أم مكتوم يا رسول الله "أَقْرِئْني وعلِّمْني مما علَّمك الله." فلم يجبْه النبي ﷺ حتى قالها ثلاثا. وورد أن ابن أم مكتوم "لم يعلم تشاغُلَه بالقوم. فكرِه رسولُ الله ﷺ مقاطعتَه لكلامه فعبس وأعرض عنه، فنزل هذا الزجر من الله تعالى" (الكشاف). وعلى إثر هذا الوحي دعا النبي ﷺ ابنَ أم مكتوم وأكرمَه وكلّمه. كان النبي ﷺ يبسط له رداءه كلما جاء بعده، ويدعوه للجلوس عليه (فتح البيان).

هذه هي الواقعة التي يذكرونها بشأن نـــزول هذه الآية ويقولون لقد احتقر النبي ﷺ هذا الأعمى، ولم يأبه به لكونه شخصًا بسيطًا فقيرا، وظلّ يتكلم مع هؤلاء الصناديد، ظنًّا منه أن توجُّهه إليهم أكثر نفعًا من التوجه إلى هذا الأعمى والفقير.

لفهم معالم هذه الرواية ينبغي أن نعرف أولاً مَن هو عبد الله بن أم مكتوم هذا. إنه ابن خال السيدة خديجة ﵂. هناك اختلاف في بعض الأسماء في نسبه، ولكن الجميع متفقون على أنه كان من بني عامر بن لؤي، فقال بعضهم إنه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري، بينما قال غيره إنه عبد الله بن عمرو بن قيس بن زائدة الأعصم. كان يدعى ابنَ أُمِّ مكتومٍ. وقال الزمخشري أُمُّ مكتوم هي جدّتُه، ولكن ابن عبد البر وغيره من المؤرخين لا يتفقون مع هذا القول، ويقولون إن "أُمّ مكتوم" هي كنيةُ والدته التي كان اسمها عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وقد تكنّتْ بأمّ مكتوم لأن عبد الله وُلِدَ كفيفًا. بينما يرى المؤرخون الآخرون أنه لم يولد ضريرًا، إنما فقد بصره فيما بعد. وكان النبي ﷺ قد جعله في غيابه عن المدينة أميرًا عليها مرتين. (الإصابة في تمييز الصحابة: حرف العين، والاستيعاب: عمرو بن قيس، والكشاف، وروح المعاني)

إن هدفي من بيان نسب عبد الله بن أم مكتوم مفصلاً هو تفنيد الزعم أنه كان رجلا بسيطا فأهمَلَه النبي ﷺ إذ لم ير في التوجه إليه فائدة. فإن هذه الحقائق حول نسبه تبطل هذا الزعم بداهة، لأن أباه وأمه كليهما من عائلتين كبيرتين، وكان ابن خال لسيدة كان النبي ﷺ يجلّها ويبالغ في إكرامها حتى بعد وفاتها بسنوات عديدة حتى إن عائشة –رضي الله عنها– كانت تغبطها. فقد روي عن عائشة أنها قالت: كان النبي ﷺ يُكثِر الحديث عن خديجة رضي الله عنها، فكنت لا أتمالك نفسي غيرةً وأقول: يا رسول الله، لا تزال تذكر تلك العجوز، وقد أبدلَك الله بها خيرا منها! فأجاب النبي ﷺ: يا عائشة، إنك لا تعرفين محاسنها وما أسدته لي من خدمات لفترة طويلة! فالرجل كان ابن خال خديجة –رضي الله عنها– وكان عاليَ النسب من جهة أُمّه وأبيه، ومثلُه لا يُراعى فقط لأنه كفيف، كما لا يُعرَض عنه بسبب عماه، لأن الدعوة تتم باللسان لا بالعين. فثبت من هذه الحقائق بطلان

الزعم أن النبي ﷺ أهملَه باعتباره وضيعا، وقال: لِمَ ألتفت إلى هذا الفقير الحقير معرضًا عن علْيَة القوم؟

ثم إن النبي ﷺ قد أمّره على المدينة مرتين (الاستيعاب: عمرو بن قيس). ومن البديهي أنه ﷺ لم يختره انحيازًا له، بل وجده جديرًا بذلك، إذ رأى أن العرب لن يمتعضوا من إمارته لأنه عريق النسب؛ ذلك لأن تعيين شخص عديم التأثير على الناس من حيث نسبه كان مستحيلاً بسبب تقاليد العرب، ولذلك نرى أن النبي ﷺ لم يؤمّر أحدًا على الناس إلا مَن كان ذا نسب عريق شهير لن يتردد الناس في طاعته عادة، كما أمَّر عليًّا ﷺ مرة في غيابه عن المدينة (السيرة لابن هشام، الجزء الرابع، غزوة تبوك). الواقع أن العرب كانت عندهم عصبية شديدة، وكانوا لا يرضون بإمارة شخص يفتقد الهيبة والنفوذ، ولم يتمكن الإسلام من إزالة هذه العصبية الشديدة من قلوبهم إلا بعد فترة طويلة، أما في البداية فكان من المحال أن يرضوا بإمارة شخص ليس له نفوذ بسبب نسبه. فالزعم أن النبي ﷺ قد جاءه شخص حقير فلم يلتفت إليه لفقره وحقارته زعمٌ باطل بداهة. وهذا الأمر يبلغ من الوضوح والجلاء بحيث يستغرب المرء كيف لم يدركه هؤلاء المفسرون، بينما فهمه بعض أعداء الإسلام؛ فإن نولدكه المستشرق الألماني الشهير يقول بعد تسجيل هذه الرواية إنها باطلة كل البطلان، لأن نَسَب عبد الله بن أم مكتوم يدل على أنه لم يكن شخصًا عاديًّا، فلا يمكن أن يكون هذا الحادث متعلقا به (تفسير "ويري"). وهذا يعني أن نولدكه قد أدرك أن هذا الحادث لا ينسجم هنا، وإلا لفرِح الرجل كثيرًا حيث وجد فيه فرصة الطعن في النبي ﷺ، ولكنه أدرك أن الرواية خلاف للواقع ولا يمكن تطبيقها على هذه الآيات.

وإضافةً إلى هذه الشهادة، هناك خمسة أمور أخرى – عندي – تؤكد أن هذا الحادث لا ينطبق هنا بهذا الشكل:

الأول: كان ابن أم مكتوم أعمى ولم يكن أصمَّ. فإما أن يقول هؤلاء إنه كان أصمّ، فلم يدرِ أن النبي ﷺ يحدّث أناسًا آخرين، فوجّه السؤال إلى النبي ﷺ دونما انتظار، وفي هذه الحالة لا ذنب له لأن المرء لا يُدان إذا أخطأ لجهله بالشيء. ولكن

التاريخ يؤكد أن عبد الله بن أم مكتوم لم يكن أصمّ، وقد فطِن بعض المفسرين إلى هذا الأمر، فقالوا في أنفسهم إن تسجيلهم هذا الحادثَ على هذا النحو سيجعل كل إنسان يقول إن ابن أم مكتوم هو المدان، إذ جاء وتدخل وحاول مقاطعة حديث النبيّ ﷺ مع القوم، وهذا خطأ ومخالف للأدب واللباقة؛ ولذلك استوجب الزجر، فحاول هؤلاء المفسرون الإجابة عليه، ولكن جوابهم يبلغ من الضعف والتهافت بحيث يستغرب المرء بقراءته، حيث قالوا: لعلّ الرسول ﷺ كان يناجي هؤلاء الكافرين، فلم يسمع ابنُ أم مكتوم صوته ﷺ (ابن كثير، وفتح البيان). إنه لقول مثير للضحك وموغل في الحمق لا يستسيغه العقل ولن يقبله أشد الناس غباء. كيف يمكن أن يدعو النبي ﷺ في مجلسه سبعة أشخاص إلى الإسلام مناجاةً وهمسًا في أذن كلٍّ منهم بحيث لا يسمعه شخص آخر، ولا يحدّثهم حديثا عاديا؟ الحق أن الفطرة تكشف الحقيقة ولو حاول أحد تغطيتها تحت ألف حجاب.

إذًا، لقد قاطعَ عبد الله بن أم مكتوم حديثَ النبي ﷺ مع القوم وهو يدعوهم إلى الإسلام، فالذنب ذنب ابن أم مكتوم، إذ لم يكن من حقه أن يتدخل ويقاطع النبي ﷺ. أما الذي يزعم أن ابن أم مكتوم لم يسمع صوت النبي ﷺ وهو يحاور القوم فعليه أن يثبت أنه ﷺ كان أصمّ. ولكن التاريخ يشهد أنه كان أعمى وليس أصمّ، وحيث إنه كان يسمع صوت رسول الله ﷺ، ويعلم أنه مشغول بدعوة القوم، فكان عليه أن لا يقاطع حديث رسول الله ﷺ، فمقاطعته دليل على أن الذنب ذنبه. فمِن غير المعقول أن يكون النبي ﷺ يحدّث القوم في مجلسه ولا يسمعه ابن أم مكتوم، كما يزعم المفسرون الذين أتوا بتأويل غير مستساغ البتة تبريرًا لموقفه. فالذنب ذنب ابن أم مكتوم على كل حال، فكيف يقال أن الله تعالى قد زجر رسوله بهذه المناسبة، وكيف يقول المفسرون أن الرسول ﷺ ربما كان يدعو هؤلاء الزعماء إلى الإسلام هامسًا في آذانهم؟ كان الوقت وقت تبليغ، لا وقت شجار مع زوجة مثلاً، حتى يهمس في أذنيها كي لا يسمعه غيرها. كان الحديث عن الله ورسوله، كان العمل نشر الإسلام ونشر التوحيد، فكيف يقال أن النبي ﷺ كان يحدّث عتبة وشيبة وغيرهما من الزعماء ملصقًا فمه بآذانهم وقائلا لهم: انظروا، إن

الله واحد أحد، وهو الذي خلق الكون كله، ولا نفعَ في الأصنام، فاتركوها وآمنوا بوحدانية الله. هذا أمرٌ يرفضه كل عاقل في الدنيا، بل يضحك عليه ويعتبره جهلا وحماقة.

الثاني: إذا كان النبي ﷺ لم يلتفت إلى عبد الله بن أم مكتوم ولم يجب على سؤاله، فقد قام بما هو عين الصواب، فما الاعتراض على ذلك؟ كان النبي ﷺ يحاور كبار الزعماء مبينًا لهم حقيقة الإسلام، وداعيا إياهم إلى الله ورسوله، فجاءه شخص وأراد مقاطعة حديثه، وتكلم بما يتنافى مع الأدب واللباقة ومع ما يقتضيه الحال، فإذا كان النبي ﷺ لم يجبه بشيء فقد أصاب. ليس في القرآن الكريم آية تمنع مما فعله النبي ﷺ، بل لو تصرّف أحد اليوم في مجلسنا كما تصرف ابن أم مكتوم فسوف نعامله بنفس ما عامل به النبي ﷺ ابنَ أم مكتوم رغم نـــزول قوله تعالى في القرآن: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾.

فمثلاً هأنذا أُلقي الآن درسًا في القرآن الكريم، فيأتي شخص ويقول لي: اترك الدرسَ وأجبْ على سؤالي، فهل يليق بي أن أتوجه إليه تاركًا الدرس، أم ينبغي الإعراض عنه إذ حاول مقاطعة حديثي غاضًّا الطرف عما يقتضيه الحال؟! الجميع يعلم أن إعراضي عنه هو الأولى والأنسب؛ لأن مثل هذا التصرف المخالف للأدب يقطع تسلسل الحديث ويزيل تأثيره في الطبائع، ويُنسي المتكلم دليله، ويترك تأثيرا ضارًّا على الحضور، فلا بد من الإعراض عن مثل هذا الإنسان. هل من المقبول مثلاً أن يكون الرسول ﷺ يبين الأدلة على وجود البارئ ﷻ أمام هؤلاء الزعماء، فيتدخل ابن أم مكتوم ويطالبه أن يعلّمه سورة النازعات وتفسيرها، ثم بعد الانتهاء من الحديث معه يتوجه ﷺ إلى القوم ثانية ويقول تعالوا نكمل كلامنا؟ إن هذا التصرف مستبعَد حتى من أشد الناس جهلا وأكثرهم غباء، ومع ذلك يقول هؤلاء: كان من واجب النبي ﷺ أن يتوجه إلى ابن أم مكتوم ويترك دعوة هؤلاء الزعماء، ضاربًا بمبادئ التهذيب والتمدن عرض الحائط. وكأنهم يريدون أن يرسموا مجلس النبي ﷺ رسمًا لن تعدّه الدنيا معقولا أبدًا.

الثالث: إن عبوس النبي ﷺ وإعراضه عن هذا الأعمى دليل على دماثة أخلاقه، ويجب أن يُثنى عليه بسببه، لا أن يُزجر. ذلك أن شخصًا أعمى يأتي النبي ﷺ ويكلّمه كلاما غير معقول، فلا يقوم ﷺ بزجره ولا تعنيفه جبرًا لخاطره.. وحينما يقاطعه مرارًا فيكتفي بالعبوس دون أن يقول له بلسانه شيئًا. كان النبي ﷺ في حيرة من أمره لأن الرجل يقاطعه مرة بعد أخرى، في حين لم يكن بوسعه ﷺ ترك الحديث مع ضيوفه من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يُرِد أن يزجر الأعمى كي لا يكسر خاطره، فماذا يفعل في هذه الحالة يا ترى؟ إن أفضل ما يمكنه أن يفعل عندها هو الإعراض عن هذا الضرير تحقيقًا لهدفين؛ أولهما أن لا ينقطع عن حديثه مع الضيوف وثانيهما أن لا يكسر قلب الضرير. وهذا ما حصل، فعبس النبي ﷺ وأعرض عن الضرير. وكانت الحكمة في إعراضه أن لا يغضب، لأنه لو ظل متوجهًا إليه فربما يتفوه بكلمة قاسية في غضب، فاكتفى النبي ﷺ بالعبوس والإعراض عن الأعمى، دون أن يكلّمه بشيء حتى لا يصيب قلبه بصدمة. وهذا عملٌ يستحق من رب العرش ثناءً عليه ﷺ بدلاً من الزجر. فإذا كان المفسرون يقولون أن النبي ﷺ لم يحسن التصرف، فليخبروا ما هو الطريق الأنسب الذي كان عليه ﷺ أن يتبعه وفقًا للمُثل والأخلاق؟ ولكنهم لن يستطيعوا أن يقترحوا أسلوبا آخر، مما يدل أن هذا هو الطريق الوحيد الأفضل الذي كان يمكن أن يتبعه النبي ﷺ في تلك المناسبة. كل ما في الأمر أن النبي ﷺ عبس استياءً من تصرف ابن أم مكتوم دون أن يقول له شيئا، وعندما رأى ﷺ أنه لا يمتنع عن فعله أعرض عنه ﷺ حتى لا يغضب عليه ويتفوّه بكلمة قاسية لو ظلّ الأعمى أمام عينيه. وكلا الأمرين يدلان على سمو أخلاقه ﷺ.

الرابع: كان ابن أم مكتوم من عائلة شريفة، فلا مجال لاعتباره وضيعا. ولو فرضنا جدلاً أنه كان شخصًا وضيعًا، فلا يصح أيضًا الزعم أن النبي ﷺ لم يتوجه إليه لكونه وضيعا، لأن المعروف عن النبي ﷺ أنه كان شديد العناية بالفقراء، ولم يزدرِ أحدًا لكونه من الطبقة الأدنى. فإننا نراه ﷺ في الفترة المكية يهتم بدعوة العبيد إلى الإسلام، ويقف عندهم في بعض الأحيان ساعات ليدعوهم إلى الإسلام بحب

ورفق، مع أنهم كانوا من أدنى الطبقات. فقد ورد في التاريخ أن عبديْن مسيحيين كانا يقرآن الإنجيل بكل حب وشوق أثناء عملهما، وكان حماسهما الديني يُعجِب النبيَّ ﷺ فيقف عندهما لأنه كان يرى أنهما أَولى بأن يبلّغهما رسالة الله، فكان يجلس عندهما ساعات طويلة يدعوهما إلى الإسلام وهما يطرقان الحديد (فتح البيان: سورة النحل، قوله تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ). فالشخص الذي كان يقف في الشوارع مع أبسط الناس، والذي كان يقوم بدعوة العبيد إلى الإسلام ساعات، والذي لم يكن يرى عليه عارًا في لقاء الفقراء وأصحاب الشرائح الدنيا، كيف يقال عنه أنه لم يلتفت إلى شخص حضر في بيته لكونه فقيرًا؟ فمن كان لا يستاء من الحديث مع العبيد أمام الناس، ولا يرى عارا في تبليغهم رسالة الإسلام، فكيف يخجل من الحديث مع ابن أم مكتوم، ما دامت المبادئ الأخلاقية لا تمنعه منه؟

الخامس: يقول المفسرون إن النبي ﷺ دعا ابن أم مكتوم فيما بعد وقال له: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي. هل لك حاجة في شيء؟ (فتح البيان، والطبري)

أقول: لو كانت هذه الآيات عتابًا وتوبيخًا للنبي -والعياذ بالله- فكان لا بد أن يغيّر ﷺ سلوكه في مثل هذه المواقف بعد هذا الحادث؛ وكلما قاطع أحد كلامه توجّهَ إليه من فوره تاركًا الحديث الذي كان فيه. ولكننا نجد في التاريخ وقائع تؤكد أن النبي ﷺ لم يغير سلوكه بعد ذلك، فقد ورد أن شخصًا حضر مرة مجلس النبي ﷺ وهو يكلّم الناس، فسأله سؤالا مقاطعًا كلامه، ولكنه ﷺ لم يلتفت إليه بل استمر في حديثه حتى ظن الصحابة أن النبي ﷺ ربما سخط على السائل، ولما انتهى ﷺ من كلامه، قال: أين السائل؟ ثم أجاب على سؤاله (البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه).

لقد ثبت من هنا أن النبي ﷺ ظلَّ يسلك نفس المسلك الذي اختاره مع ابن أم مكتوم، وكلما حاول أحد أن يسأله مقاطعا كلامه لم يجبه بشيء، بل استمر في حديثه حتى انتهى منه. ولم يسلك النبي ﷺ هذا المسلك في مكة فحسب، بل ظل متمسكًا به في المدينة المنورة أيضا. بل يتضح من الروايات الأخرى أن هذا كان دأبه دائما.. أعني أنه كان لا يرد على سائل يحاول مقاطعة كلامه. وإن هذا ما

يفعله الشرفاء دومًا. فلو كانت هذه الآيات توبيخا للنبي ﷺ لغيَّر سلوكه بعد نزولها، وكلما سئل عن شيء أخذ في إجابته فورا أيًّا كان الموقف، مخافة أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه من قبل. ولكن النبي ﷺ لم يسلك هذا الطريق البتة، بل ظل متمسكًا بسلوكه الذي سلكه مع ابن أم مكتوم.

فالسؤال هنا: ما هو الأمر الذي نـــزل بسببه هذا النهي والتوبيخ للنبي ﷺ؟ إن أسوته ﷺ تؤكد أنه ظل طوال حياته متمسكًا بنفس المسلك الذي سلكه مع ابن أم مكتوم، ولم يحب أن يقاطع أحدٌ كلامَه، لأن هذا يقطع تسلسل الكلام، ويُفقِد الحديثَ تأثيرَه في الناس، ويُنسي المتكلمَ جوانب كثيرة من الموضوع، ولا يستطيع أن يكمل حديثه.

إذًا، فلو فرضنا –جدلاً– صحة ما يقول المفسرون لكان معنى ذلك أن النبي ﷺ لم يرتدع عن سلوكه رغم "التوبيخ الربانيّ" –والعياذ بالله.

لقد سبق أن بينتُ أن الثابت من الروايات أن عبد الله بن أم مكتوم لم يكن وضيعًا. لا شك أنه كان ضريرا، ولكنه كان من عائلة النبي ﷺ، حيث كان ابن خال خديجة رضي الله عنها، وكان أبواه من عائلة شريفة شهيرة؛ فلا بد أن يكون مقربا من النبي ﷺ بسبب نَسَبِه الرفيع وقرابته من خديجة، وهذا ما يدل عليه الأمر الواقع أيضًا، فإن النبي ﷺ قد عيّنه أميرًا على المدينة في غيابه مرتين بعد هذا الحادث، مما يدل أن النبي ﷺ كان يكنّ له التقدير الكبير، ويقدر نسبه العالي، وهذا أيضًا دليل ساطع على خطأ موقف المفسرين.

وعندي أن الله تعالى قد جعل في هذه الآيات نفسها حلاً لهذه المعضلة، ولكن المفسرين لم يولوه الاهتمامَ الكافي. لقد انتقلت أذهانهم إلى هذا الأمر، ومع ذلك ظلوا يقدّمون تأويلات بعيدة. وينكشف علينا هذا الحل بالتدبر في صياغة هذه الآيات وترتيبها. يقول الله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۝ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾. فنجد هنا جُملاً قد وردت بضمير الغائب، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى۝

أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾. ثم نجد جُملاً انتقل فيها الكلام من الغائب إلى الحاضر، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾، وقال ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى...﴾. وهناك أربعة احتمالات فقط لمن تعود عليه الضمائر في هذه الجُمل:

أوّلها: أن يكون ضمير الغائب والمخاطب كليهما راجعًا إلى النبي ﷺ.

ثانيها: أن يكون ضمير الغائب والمخاطب كليهما راجعًا إلى غيره ﷺ.

ثالثها: أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى غير النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى النبي ﷺ.

رابعها: أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى غيره ﷺ.

والآن، علينا أن نحدّد الصحيح من هذه الاحتمالات.

نتوجه أولاً إلى الاحتمال الثاني، وهو أن هذه الآيات لا تتحدث عن النبي ﷺ لا في ضمير الغائب ولا المخاطب، وإنما ترجع الضمائر إلى غيره ﷺ. وبقبول هذا الاحتمال يصبح معنى الآيات غير معقول على الإطلاق، لذا فلا بد من إسقاطه، لأن قصة ابن أم مكتوم مذكورة في روايات متواترة، ومن المحال أن تكون القصة الواردة في مصادر شتى بهذا التكرار والتواتر باطلة. لا بد أن حادثًا ما قد وقع فعلاً، لذا فلو قلنا إن قوله تعالى ﴿عَبَسَ﴾ و﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ كله إشارة إلى شخص غير النبي ﷺ اضطُررنا لتكذيب هذه القصة من جذورها، وهذا الإنكار محال، لأن كتب الحديث والتاريخ كليهما تذكرها مرارًا وتكرارًا.

أما إذا أخذنا بالاحتمال الأول وقلنا إن ضمائر الغائب والمخاطب كلها راجعة إلى النبي ﷺ، فالسؤال: لماذا غيّر الله تعالى الضمائر هنا؟ ولماذا قال أولاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، ثم قال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو يعني الرسول نفسه ﷺ في الجملتين؟

يقول المفسرون في الجواب: لقد تحدّث الله تعالى عن النبي ﷺ بضمائر الغائب "إجلالاً له ﷺ ولطفًا به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى" (فتح البيان)، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ ولم يقل: (عبستَ وتوليتَ أن جاءك الأعمى). ثم خفّف العتاب قليلا وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾.

ولكنا نرى أن العتاب لم يخفّف في آيات ضمير المخاطب، بل اشتدّ، أما في آيات ضمير الغائب فليس هناك أي عتاب أصلا. فقد بينتُ من قبل أن العبوس والتولي مع ضريرٍ ليس مما يجرح مشاعره أو ينـــزل بسببه عتاب رباني، بل إن هذا السلوك النبوي دليل على خُلقه العظيم. أفليس غريبا إذًا، أن يستعمل الله تعالى ضمائر الغائب حيث لا عتاب أصلا، ويستعمل ضمائر الخطاب حيث العتاب كله؟ انظرْ إلى شدة النبرة في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾. فمتى كانت هذه الكلمات أخفَّ من العبوس والتولي؟ بل يبدو وكأنه تعالى قد ركّز فيها على التوبيخ وأهملَ جانب المدح. فثبت أن تأويل المفسرين باطل تماما، لأنه لا يتماشى مع الضمائر المتغيرة؛ إذ لا مبرر معه لتغيير الضمائر.

وبقي الآن عندنا احتمالان فقط: الثالث والرابع، ولو أخذنا بالاحتمال الثالث – أي أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾ عائدًا إلى غير النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعًا إلى النبي ﷺ – لواجهتْنا المشكلة المشار إليها من قبل، أعني أننا نضطر لإنكار هذه الواقعة الواردة في كتب الحديث والتاريخ عن ابن أم مكتوم، والتي لا يمكننا إنكارها بعد هذه الشهادات الكثيرة المتواترة الواردة في كتب التاريخ وبعض الصحاح. (الترمذي، أبواب التفسير). ومعلوم أن الشهادة التاريخية لا يمكن رفضها إلا بشهادة مخالفة أقوى منها.

إذًا فقد بقي عندنا الاحتمال الرابع فقط، وهو أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى غيره ﷺ. وأرى أن هذا هو السبيل الوحيد لحل هذه المعضلة، لأنه لا يتنافى مع هذه الواقعة التاريخية، كما لا ينال من عظمة الرسول ﷺ وكرامته. وعندي أن الضمير في قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ راجع إلى النبي ﷺ وأن واقعة ابن أم مكتوم صحيحة، إذ تكررت في مصادر شتى بتواتر، ولا يسعُنا رفضُها بغير أن يكون بيدنا دليل تاريخي قاطع يقيني.

فالواقع أن ابن أم مكتوم جاء النبيَّ ﷺ وهو يقوم بدعوة صناديد مكة إلى الإسلام، فقال في نفسه متحمسًا: لماذا يضيع النبي ﷺ وقته الثمين مع هؤلاء الكافرين به؟ فكان منه ما كان. الواقع أن طبائع الناس مختلفة، وكل إنسان يعبّر عن أفكاره بأسلوبه الخاص. لقد رأيت أن بعض الأحمديين عندما يرون أحدًا منا يقوم بدعوة بعض أعداء جماعتنا الألداء، لا يتمالكون أنفسهم غيظا، ويقولون: دَعْ هؤلاء الملاعين. إنهم لا يستحقّون الكلام، إنهم حطب جهنم، فلا داعي لإضاعة الوقت معهم. فترى أن هؤلاء الأحمديين أيضًا لا يحتملون أن يكلم أحد هؤلاء المعارضين، إذ يرون أنهم حطب جهنم، وأنهم لن يرتدعوا عن المعارضة، بل سيموتون مستوجبين غضب الله وسخطه، فدعْوَتُهم إلى ما قال الله ورسوله مضيعة للوقت. وعندي أن عبد الله بن أم مكتوم أيضًا كان من هذا الصنف من الناس، فلما حضر مجلسَ النبي ﷺ وجده يدعو عتبة وشيبة وأبا جهل وأمية والوليد إلى الإسلام، فثارت حميته، وقال في نفسه إن هؤلاء الخبيثين يسبّون النبي ﷺ ليل نهار فكيف جاءوا الآن إلى مجلسه؟ إنهم حطب جهنم؟ ما لهم ولما قال الله ورسوله؟ لا حاجة لإضاعة الوقت معهم. فدفَعتْه أفكاره إلى أن يقطع على النبي ﷺ حديثه مع القوم، فقال: يا رسول الله، لا تحدّث هؤلاء عن الإسلام، بل أَقْرِئْني وعلِّمْني أنا مما علّمك الله. فشقَّ على النبي ﷺ تصرُّفه غيرَ اللائق؛ إذ كان ﷺ يكلّم القومَ الذين كانوا ضيوفًا حضروا بيته، وكان أحد مريديه قد أساء الأدب وسلك مسلكًا يتنافى مع إكرام الضيوف ويجرح مشاعرهم. لا شك أن ابن أم مكتوم لم يسبّ هؤلاء الكافرين، لكن قوله للنبي ﷺ: أَقْرِئْني وعلِّمني مما علّمك الله كان يعني: دَعْ هؤلاء القوم فإنهم أعداء ألداء للإسلام، وأنّى لهم أن يدخلوا فيه؟! ولكن الرسول ﷺ كان يريد أن يقرأ عليهم أحكام الله تعالى، ويؤدي واجبه الذي كلفه الله به، سواء صدقوه أم لم يصدقوه.

باختصار، قد تصرَّفَ عبد الله بن أم مكتوم من فورة حماسه تصرفًا ينافي العقل والأخلاق، لأنه ما دام النبي ﷺ يدعو هؤلاء الصناديد إلى الإسلام، فما كان لابن أم مكتوم أن يظن أن لا فائدة في دعوتهم، أو أن على النبي ﷺ أن يتوجه إليه بدلاً

منهم. لا شك أنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فعلاً بل صاروا حطب جهنم فيما بعد، ولكن كان من واجبه ﷺ عندها إكرام ضيوفه والعناية بهم، أما عبد الله بن أم مكتوم فما كان ليحترم أوامر الله تعالى احترامَ النبي ﷺ لها، كما لم يكن ليدرك مسؤولية إكرام الضيف مثله ﷺ، ولا سيما أنه كان ضريرا، والضرير ضعيف الإحساس بهذه الأمور لأنه لا يرى شيئا، فلا يتكلم برِفق ولين. وفي بلدنا يقولون إنك لو أردت أن تسمع كلاما قاسيا فتكلَّمْ مع أعمى، وليس ذلك إلا لأنه لا يستطيع الرؤية فلا يبالي مطلقًا بردّة فِعل الناس على حديثه. ولذلك نجد أن ابن أم مكتوم لما حضر مجلس النبي ﷺ ووجده يقوم بدعوة ألدّ أعداء الإسلام ثارت حميّته، ولكنه كان لا يستطيع أن ينهى النبي ﷺ عن دعوتهم صراحة، أو يلوم هؤلاء الكافرين على مجيئهم هناك ويأمرهم بالخروج؛ فما كان منه إلا أن قال للرسول ﷺ: أَقْرِئْني وعلِّمْني مما علّمك الله. ثم ظلّ يردّد قوله هذا على النبي ﷺ بإلحاح، فتضايق ﷺ من تصرُّفه، ولكنه ﷺ لم يُرِدْ أن يجرح مشاعره، فاكتفى بأن عبَس وأعرضَ عنه. لقد خطر ببال النبي ﷺ أن هؤلاء الزعماء الكفار سيقولون ما لهؤلاء المسلمين لا يعلمون آداب المجلس، ولا يرون أنا جئناهم لسماع حديثهم. علمًا أننا لسنا هنا بصدد أنهم جاءوا النبي ﷺ نفاقًا وكانوا يكذّبون قوله في قلوبهم. فما داموا قد جاءوا – في الظاهر – لسماع حديثه ﷺ عن الإسلام، وكان ﷺ يرى ضرورة دعوتهم، فعبس وتولى عن ابن أم مكتوم حين تصرّفَ هذا التصرّف الخاطئ. وهذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾.

ثم إن كلمة ﴿الأَعْمَى﴾ نفسها التي هي معرفة باللام هنا أيضا تبين أن هذه الآيات تشير إلى واقعة معينة، وإلى أعمى معيَّن. فلو كانت هذه الآيات مدحًا لهذا الأعمى، أي لو أراد الله تعالى لَوْمَ رسوله على عدم التفاته إلى الأعمى، أو مَدْحَ تصرُّف الأعمى، فكان الأولى أن يذكر الله اسمه، ويقول إن فلانا قد جاء إلى رسولنا فعبس ﷺ وتولى، ولكن لم يذكر الله اسم هذا القادم لأن تصرفه لم يكن محمودا، بل قال ﴿أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾، أما لو كان تصرّفه محمودًا وأراد الله مدحه لذكر اسمه حتما، وقال: عبس وتولى أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم؟! ولكن الله تعالى لم يقل ذلك

من ناحية، ومن ناحية أخرى استعمل كلمات ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في حق رسوله ﷺ، لأن تصرفه ﷺ هذا دليل على سمو أخلاقه.

فعندي أن الواقعة الحقيقية هي أن عبد الله بن أم مكتوم حضر مجلس النبي ﷺ ووجّه إليه سؤاله بما يجرح مشاعر ضيوف الرسول ﷺ، ويُخِلّ بحديثه، فتضايق النبي ﷺ من تصرفه، ولكنه لم يُبد له سخطه، وإنما اكتفى بأن عبس وتولى، ومعلوم أن الأعمى لا يرى العبوسَ ولا التولي. ولما وجد ابن أم مكتوم أن النبي ﷺ لا يلتفت إليه بل هو مستمر في حديثه مع الضيوف خرج من المجلس متضايقًا. ولعله حكى للآخرين ما حدث، ومن المحتمل تماما أن يكون هؤلاء ذوي طبائع حماسيّة مثله، فقالوا في أنفسهم إن ما حصل ليس بجيد، بل كان على النبي ﷺ أن يهتم بابن أم مكتوم، إذ كيف يتجاسر هؤلاء الأعداء الخبثاء أن يحضروا مجلسه ﷺ ويضيعوا وقته الغالي الثمين؟

باختصار، إن قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ يشير إلى رسول الله ﷺ، وقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ موجه إلى الذين كانوا يحملون أفكارا كأفكار عبد الله بن أم مكتوم، حيث بين الله تعالى أن رسولنا ﷺ قد تصرّف مع هذا الأعمى بما يدل على عظمة أخلاقه، لأن الأعمى تدخل وأراد مقاطعة حديثه، فاكتفى رسولنا ﷺ بالعبوس والإعراض عنه، حتى لا يسوء الموقف فيما لو أبدى النبي ﷺ غضبًا وسخطًا.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤

شرح الكلمات:

ما يُدْريك: أدراه به: أعلَمَه. "ما أدراك وما يدريك" أي ما تَدري، وفي القرآن... ﴿وما يُدريك لعلَّه يَزَّكَّى﴾. (الأقرب)

يَزَّكَّى: أصلُه: يتزكّى، وتَزكّى فلان: صار زكيًّا. (الأقرب)

يَذَّكَّر: أصلُه: يتذكّر، وتَذكّرَ الشيءَ بمعنى ذكَره.. أي حفظه في ذهنه؛ وتذكّرَ ما كان قد نسي: فطِن به (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿لعلَّه يَزَّكَّى﴾ أن يحفظ النصيحةَ في ذهنه، أو يفطِن ما نسيه.

التفسير: يقول المفسرون إن قوله تعالى ﴿ما يُدْرِيك﴾، وقوله ﴿لعلّه يَزَّكَّى﴾ جملتان منفصلتان؛ فقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيك﴾ يعني: مَن أخبرك أنه لن يهتدي؟ وقوله تعالى ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ يعني: فربما يهتدي. والحق أن المعنى الواضح للآية هو: مَن أعلمك أنه لن ينتفع من الهداية حتمًا، إذ الخطاب هنا موجَّه إلى بعض المسلمين الذين قد نشأت -أو يمكن أن تنشأ- هذه الأفكار في قلوبهم. فيقول الله تعالى: أيها المعترض، مَن أعلمَك أنه لو توجّهَ الرسول ﷺ إلى عبد الله بن أم مكتوم لانتفعَ حتمًا؟ ألا يرتدّ الناس؟ فكم من شخص يقوم بدعاوى عريضة عن إيمانه، ثم يأتي عليه زمان يصب كل جهوده في محاربة الإيمان. فما دام هذا هو الأمر الواقع، وما دام الناس عرضة لهذه التقلبات، فكيف عرفتم أن التوجه إلى فلان سيكون نافعًا له حتمًا؟ إن النبي يتبوء مكانة عالية من التقدير والطاعة، بحيث إنه لو نادى أحدًا فمن واجبه أن يلبي نداءه فورًا ويترك عمله مَهْما كان عمله مُهمًّا ومَهْما كان تركه صعبًا. والحق أن هذه هي علامة الإيمان؛ فإذا نادى النبي أو نائبه أحدًا، فلا يحق له أن يظل مشغولا بأمر آخر، حتى ولو كان مشغولا بالتبليغ، حتى ولو اعتبر الناس تدخُّلَ النبيِّ أو نائبه من سوء الأدب. فلو كان ابن أم مكتوم مشغولا بدعوة الكافرين وناداه النبي ﷺ لكان واجبًا عليه ترك دعوتهم وتلبية ندائه ﷺ غير مكترث بما يقوله الناس، ولكن ليس من حق ابن أم مكتوم أن يستجيب له الرسول ﷺ تاركًا دعوة الكافرين إلى الإسلام. القول بأنه لا جدوى في توجُّه النبي ﷺ إلى الكفار أمرٌ غير مؤكد، وكذلك القول أن توجّه النبي ﷺ إلى ابن أم مكتوم مُجْدٍ أيضا أمرٌ غير مؤكد، وما دام الأمران اجتهاديْن غير مؤكدين، فكان من واجب النبي ﷺ أن يعمل بما يتفق مع الأخلاق، ويتجنب ما ينافي الأخلاق؛ ولذلك لم يلتفت النبي ﷺ إلى ابن أم مكتوم، بل ظل متجهًا بحديثه إلى الكفار. إذًا فكأن الله تعالى يقول في قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أيها المعترض، مَن أعلمَك أن محمدا ﷺ قد أخطأ التصرف، وأن ابن أم مكتوم يمكن أن يتزكى وغيره لا يمكن أن يتزكى؟ لا شك أن ابن أم مكتوم قد تزكى فيما بعد، ولكن الرسول ﷺ ما كان يدري كيف يكون مصير هذا المؤمن،

وهل سيظل متمسكا بالهدى أم لا. فما دام الرسول ﷺ مأمورًا من عند الله باحترام الضيوف الذين حضروا في بيته، وتقديم ما هو مقدَّم وتأخير ما هو مؤخَّر، فكيف يمكن للرسول ﷺ أن يفعل عكس ذلك؟ وما يدريه أن ابن أم مكتوم سيتزكى حتمًا لو تم الالتفات إليه؟ أو أنه لو ذُكِّر فستنفعه الذكرى؟

قد يقول قائل هنا: كان انتفاع ابن أم مكتوم من الذكرى مرجوًّا ولو قليلا، فيرد الله عليه: مَن أخبرك أنه سينتفع حتمًا ولو قليلا؟ هذا اجتهاد ظني وذاك اجتهاد ظني أيضًا. ولما اجتمع اجتهادان فضّل النبي ﷺ العملَ بالاجتهاد الذي يتفق مع إكرام الضيف ومع أمر الله تعالى، فقدّم المقدَّم وأخّر المؤخَّر.

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٦﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

استغنى: غَنِيَ غِنًى وغَناءً: ضدُّ فقُر، أي كثُر مالُه. استغنى اللهَ: سأَله أن يُغْنيه. استغنى عنه به: اكتفى. (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾: أي أما مَن يطلب المال أو الغنى، وأما من لا يبالي.

تصدّى: أصلُه تتصدّى. تَصدَّى له: تعرَّضَ وهو الذي يستشرفه ناظرًا إليه. وتصدى للأمر: رفَع رأسَه إليه. (الأقرب)

التفسير: هنا أيضًا قد ردّ الله على الذين اعترضوا على تصرف الرسول ﷺ، حيث قال لهم: تزعمون أن محمدًا يهتم بالأغنياء، ويهمل الفقراء البسطاء، مع أن ما تقولونه ينطبق عليكم؛ فأنتم تهتمون بالأثرياء وتُهملون الفقراء، فكيف ترمون محمدا بدائكم؟ هلاّ فكّرتم في حالكم لتروا أنكم أنتم الذين تهتمون بالأثرياء أشد الاهتمام، مع أنكم لستم مسؤولين عمن يهتدي ومن لا يهتدي، إنما عليكم اتباع أحكام الله تعالى، والعمل بما يأمركم الله به معرضين عما تهوى أنفسكم. إذا أمركم

الله تعالى أن تكلّموا المؤمن فكلّموا المؤمنَ، وإذا أمركم الله أن تكلّموا الكافر فكلّموا الكافرَ. ولكنكم تتوجهون إلى الأثرياء عمدا وقصدًا، مع أن الله تعالى وحده يعلم من ذا الذي سيصبح من النازعات غرقًا والناشطات نشطًا، إنما واجبكم أن تعملوا بأوامر الله وأحكامه. لقد أمركم الله بإكرام الضيف، فعليكم بإكرامه، وأمَركم الله بتقديم المقدَّم وتأخير المؤخَّر، فعليكم أن تعملوا بهذه الوصية غاضّين النظر عما إذا كان غنيًّا أم فقيرا، ولكنكم تهتمّون بالأثرياء، ومع ذلك تقولون أن محمدًا يهتم بالأثرياء معرضا عن الفقراء، مع أنه ﷺ لم يفعل ما فعل إلا بأمر الله ومشيئته، مطيعا لأحكامه سبحانه، لا مخالفًا لقوانينه، ولكن بدلاً من أن تفكّروا في حالكم تنسبون هذا العيب إلى الرسول ﷺ، مع أن ما فعل كان عين الصواب.

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٩ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝١٠ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١١

شرح الكلمات:

يسعى: سعى إليه: قصَد؛ وسعى الرجلُ: مشى وعَدا (الأقرب).

تلهّى: أصلُه: تتلهَّى أي تتشاغلَ. (اللسان)

التفسير: هذه الآيات أيضًا لا تشير إلى حادث معين، كل ما نعرف منها أنها لا تنطبق على واقعة ابن أم مكتوم، لأنه كان ضريرًا، فكيف جاء إلى النبيّ ﷺ يسعى. ثم إنه كان رجلا شجاعًا، حيث إنه لما حضر مجلسَ النبي ﷺ ثارت ثائرته فأخذ يعنّف الكافرين، ويقول كيف حضر أعداء الله ورسوله في مجلسك؟ إنهم قوم ملعونون، والتوجه إليهم مضيعة للوقت، بينما يصف الله تعالى هذا القادمَ بأنه يخشى؛ فثبت من هنا أن هذه الآيات لا تتعلق بعبد الله بن أم مكتوم، وإنما رسَم الله تعالى هنا صورة لواقع أخلاق الناس عادةً، وردَّ على الذين اعترضوا على الرسول ﷺ، فقال: لو جاءكم فقير يسعى تُعرِضون عنه، ولكن إذا جاءكم غني لم تتمالكوا

أنفسكم فرحًا بأن ثريًّا جاءكم، ومع ذلك تتّهمون رسولنا بأنه يهتم بالأثرياء ويهمل الفقراء. أفليس هذا ظلمًا صريحًا؟ وبالفعل نرى أن الناس يفخرون كثيرا لو أتيحت لهم فرصة الحديث مع شخص كبير ثريّ، ولكن لا يكترثون لما يقول لهم أنبياء الله تعالى. كان المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة ينتظر القطار في محطة القطار بلاهور أو أمرتسر، فجاءه باندت ليخرام الهندوسي وسلّم عليه. وكان ليخرام يحتلّ مكانة مرموقة جدًّا عند الفرقة الهندوسية "آريا سماج"، ففرِح أصحاب المسيح الموعود عليه السلام الذين كانوا معه بتسليمه عليه، ولكنه عليه السلام أعرض عنه ولم يجبه. فظنّ أصحابه أنه لم يعرف أن ليخرام يسلّم عليه، فقالوا له: إن ليخرام يسلّم عليك. فقال المسيح الموعود عليه السلام في حماس شديد: ألا يستحي هذا! يسبّ سيدي محمدًا ﷺ ويسلّم عليّ؟ هذا يعني أنه عليه السلام لم يبالِ بليخرام، لكن الناس عامة يعتبرون لقاءهم بزعيم كبير نجاحًا كبيرًا، وإذا جاءهم أحد كبراء القوم يلقونه بحفاوة كبيرة، ولكن إذا جاءهم فقير لم يلقوا له بالاً! فالحق أن الله تعالى قد نبه هنا هؤلاء المعترضين إلى عيبهم هذا ووجّه إليهم زجرًا وتوبيخًا، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.. أي إذا جاءكم أحد البسطاء الفقراء ساعيًا وهو يخشى الله تعالى، فلا تأبهون له! فكيف تعترضون على نبينا؟ عليكم أن تنظروا إلى حالتكم الأخلاقية، لأنه إذا جاءكم أحد الأثرياء قمتم تعظيمًا له، متوجهين إليه بجلّ اهتمامكم، ولكن إذا جاءكم مسكين فقير أعرضتم عنه، ولم تطيقوا الحديث معه. ليس اعتراضكم إلا أن رسولنا لم يتوجه إلى ابن أم مكتوم لما جاءه، مع أن الإعراض وعدم الالتفات إليه كان هو الأَولى، إذ تصرّفَ في مجلسه ﷺ بما ينافي الأخلاق ويخالف آداب المجلس، فاستحق الإعراضَ عنه، وأنتم تعترضون على هذا العمل المباح، في حين أنكم أنتم الذين تهتمون بالأثرياء وتُهملون الفقراء.

باختصار، هناك احتمال واحد يمكن الأخذ به من بين الاحتمالات الأربعة التي فصّلتُها من قبل، وهو عندي أن ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ يتعلق بالرسول ﷺ نفسه، وأن عبوسه أمامَ الأعمى وإعراضَه عنه عملٌ يجب أن يثنى عليه، وقد نـــزلت هذه الآية

أيضًا مدحًا لخُلقه ﷺ لا ذمًّا له؛ لأن اعتباره ذمًّا يخلّ بترتيب الآيات. لقد بيّنتُ من قبل أن هذه الآيات بدأت بصيغة الغائب، ثم تحولت إلى صيغة الخطاب، وهذا التغير لا يخلو من حكمة، وما هي إلا أن الله تعالى قد أثنى على فِعل رسوله ﷺ بصيغ الغائب، ثم بصيغة الخطاب قد ردّ على الوساوس التي نشأت، أو قد تنشأ، نتيجة هذا الحادث في قلوب الكافرين أو بعض المسلمين الذين لم تتيسر لهم تربية كافية، وبيّن أيضًا أن تصرُّف رسولنا ﷺ يتفق مع مشيئتنا وأحكامنا. إن هؤلاء المعترضين أنفسهم يفرّقون في المعاملات بين غني فقير وصغير وكبير، ولكن رسولنا لا يفعل مثلهم، فاعتراضهم واهٍ لا قيمة له البتة. كيف يمكنهم الجزم بأن الاهتمام بابن أم مكتوم ينفعه حتمًا؟ هل تلقوا وحيًا أكد لهم ذلك؟ إنما هو مجرد اجتهاد منهم، وحيث إن قولهم مجرد اجتهاد ليس أساسه علم اليقين، فاعلموا أن رسولنا قد قدَّم ما يجب أن يقدَّم، كما أنه أدى واجب إكرام الضيف، معربًا عن سخطه على تدخُّل ابن أم مكتوم بحيث لم يجرح مشاعره أيضًا. إذًا، فإنه ﷺ قد أحسن صنعًا فيما فعل. أما أنتم أيها المعترضون على محمد، فأنتم أصحاب هذه الأخلاق المشينة، ثم تتهمون بها رسولنا ﷺ.

الواقع أن اتهام الأنبياء والطعن بهم بدون حق أمرٌ خطر جدا، لأن الله تعالى يغار على أنبيائه جدًّا، وقد أبدى غيرته لرسوله ﷺ في هذه الآيات، فقال للكافرين إنكم تطعنون في رسولنا بعيب أنتم موصومون به، وتصرفات رذيلة أنتم تأتونها.

والمنافقون يثيرون اعتراضات شتى ضدي أيضًا، فأُجيبهم دائما: إن اعتراضكم في حد ذاته صحيح، ولكنه لا يقع عليّ، بل يقع عليكم، لأن تصرفاتكم تؤكد أنكم موصومون بهذه العيوب. وبنفس الأسلوب قد رد الله تعالى هنا على هؤلاء المعترضين، فقال صحيح بأن بعض الناس يهملون الفقراء ويهتمون بالأغنياء، ولكن محمدًا ﷺ لم يفعل هذا، وإنما أنتم أيها المعترضون مصابون بهذا العيب. وهكذا نبه الله المسلمين بأن بعض حديثي العهد من المسلمين أو بعض الكافرين مصابون بهذه

النقائص والعيوب، ولا يتحرجون في أن يرموا بها رسولنا أيضا، فعليكم بتجنب هذه النقائص، وتأدّبوا مع رسولكم غاية الأدب.

أما لو غضَضْنا الطرف عن هذه الروايات، فتفسير الآيات يصبح سهلاً جدًّا، حيث نعتبر قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ متعلقًا بكافر، أي أن النبي ﷺ كان جالسا مع بعض رؤساء المشركين، فحضر أعمى مجلسه ﷺ ليتعلم منه الدين، فعبس منه أحد الكفار الحاضرين وتولى وأعرض عنه ازدراءً به. فكأن الله تعالى يقول لهذا العابس المُعرِض: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾؟ وأيُّ شكّ في أن صديق المرء وتلميذه هو الذي ينفعه. والعاقل لا يُكرِم إلا مثل هذا الإنسان. فيا مَن عبستَ وتوليتَ ازدراءً بشخص بسيط فقير حضر إلى محمد، تهتم بالأثرياء ذوي الجاه في الظاهر، بغضّ النظر عما إذا كان يريد أن يتزكى أم يريد الفسق والفجور، لأنك إنما تهتمّ بماله وجاهه لا بشيء آخر، أما الشخص الآخر – الذي ﴿جاءك يسعى﴾، أي سائلا محتاجا، ﴿وهو يخشى﴾، أي يخاف عدم التفاتك إلى حديثه لكونك من كبراء القوم – فإنك لا تُكرمُه، لا تقديرًا بأنه اعتبرك معقد آماله، ولا عطفًا على مسكنته وخشيته، بل تطرده بحجة ضيق الوقت عندك. وتظن أن اهتمام محمد ﷺ بالمساكين من العميان والمعاقين دليل على وضاعته، وأن حُبّك لصحبة الأغنياء دليل على رفعة شأنك! ولكن ظنّك هذا ظنٌّ خاطئ، لأن الذي يُرجى إصلاحه وتزكيته هو الأَولى بالاهتمام؛ فما يفعله محمد هو العمل الحسن، أما عبوسك وإعراضك فلا مبرر له.

واعلم أن الله تعالى قد بيّن بذلك أن جنود الإسلام لن يُختاروا من ذوي الغنى والثراء، بل يختار ﷻ لذلك تلك الأرواح الطيبة التوّاقة إلى قبول الحق ونيل التزكية. وكأن الله تعالى قد أوضح للمسلمين أن لا يبحثوا بين أهل الثراء والرياسة عن الأرواح التي تكون موصوفة بالنازعات والناشطات وغيرها من الصفات، بل الله أعلم بها وبمكانها، وهو الذي سيختارها بنفسه.

كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٣﴾

التفسير: نظرًا إلى المفهوم الذي ذكرتُه من قبل، ستُعتبر كلمة ﴿كَلَّآ﴾ موجهةً إلى ذلك الإنسان الضعيف الذي شكّ في الرسول ﷺ، وانتابت قلبَه وساوسُ تتنافى مع الإيمان القوي، فكأن الله تعالى يقول له: ليس الأمر كما يظن، بل إنها تذكرة.. أي قد أنـــزلنا القرآن ليكون موعظة وهداية لكافة الناس إلى الصراط المستقيم، فكل من كان قلبه منسجما مع هذا الهدى، سوف يصدّقه حتمًا وسيأتي إليه تلقائيًا، وأما غير المنسجمين مع هذا الهدى فلن يقبلوه، إذ لن ينمو هذا الغِراس إلا في تربة صالحة له. فالقول إن الرسول ﷺ هو من ينتقي البعض ويرفض الآخرين قول غير سليم. لقد قلتُ في البداية إن سؤالا طرح نفسه عن سورة النازعات وهو: مِن أين تأتي هذه النفوس الطيبة التي تصبح نازعات وناشطات؟ فأجاب الله هنا في سورة "عبس" على هذا السؤال وقال: لماذا ينشأ هذا السؤال في قلوبكم؟ ما دام اختيار هذه النفوس بأيدينا، فلا داعيَ أن تقلقوا. نحن أعلَمُ بالذين يصلحون ليكونوا من النازعات والناشطات، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء، أو من كلتا الفئتين. نحن أعلم بما عندهم من مزايا وكفاءات كامنة، ونحن الذين نخرج من بين القوم تلك النفوس القادرة على القيام بهذه المهام العظيمة، بغض النظر عما إذا كانت من الأغنياء أم من الفقراء. وبالفعل قد أسلمَ عثمانُ رضي الله عنه الذي كان من أسرة ثريّة بمكة، وأسلمَ طلحةُ والزبير اللذان كانا من عائلات ذات نفوذ وسيادة، وإن لم يخترهما القوم للسيادة في ذلك الوقت. والفرق الوحيد بين عثمان وطلحة والزبير أن الأول قد أتى معه بالمال، أما الآخريْن فلم يأتيا بأي مال. إذًا، فقد أخرج الله تعالى مِن الكفر كل مَن وجد فطرتَه منسجمة مع الإسلام، سواء أكان مِن أبناء الأسر العريقة الثرية أو مِن الأسر الفقيرة.

كان في جماعتنا أخ اسمه "شيخ غلام أحمد" – غفر الله له – وكان يظن أنه طويل الباع في التصوف، وكان يريد فرض نظريته الصوفية على الجميع. وقد قابلني ذات مرة وقال: أتحبّ الفقراء أم الأغنياء؟ فحاولتُ – بدايةً – ألا أجيبه، ولكنه أصرّ

عليّ بإلحاح وتكرار، فقلت له: لا أحبُّ الأثرياء ولا الفقراء، ولا أكره الأثرياء ولا الفقراء، وإنما أنظر إلى مَن يربطه الله تعالى معي لنشر دينه، بغض النظر عن فقره وغناه. فإذا اختار الله تعالى لمساعدتي فقيرًا أحببتُه، وإذا اختار غنيًّا أحببتُه، فأنا رهنُ إشارة الله فيمن يختاره لهذه المهمة.

إذًا، فمن سنة الله أنه يختار لنصرة دينه الأغنياءَ والفقراء أيضًا، وإنْ كان أكثرَ اختيارًا للفقراء، وإذا اختار غنيًّا فليس ذلك لغناه أو عراقة أسرته، بل لاستحقاقه ولكفاءاته الشخصية. ولكن بما أنه من أسرة عريقة، فينال التكريمَ في جماعة النبي أيضا. هذا هو المعنى الذي أكده الله تعالى بقوله ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾.. أي أن القرآن كتابُ موعظة ونصيحة، فمَن شاء قرأه وانتفع به ونال الرفعة والإكرام، ولا دَخْلَ للنبي في ذلك. لقد جعل الله طبائع بعض الناس منسجمة مع القرآن، وسيظلون ينتفعون بهَدْيه تدريجيًا دون أن يعيقهم عن ذلك عائق. فإذا كانت طبيعة ثري منسجمة مع القرآن، فلا يمكن منعه من الاقتداء به، وإذا كانت طبيعة فقير منسجمة معه، فلا يمكن منعه من اتّباعه أيضا. فالظن أن دين الله هو للفقراء فقط ظنّ خاطئ، بل من شاء دخل فيه وانتفع ببركاته وتقرب إليه تعالى، لأنه سبحانه لم يمنع أحدا من ذلك.

هذه هي الجملة التي كنتُ قد قلتُها عن النبي ﷺ والتي ثارت بسببها ضجة كبيرة في هذه الأيام. لقد قلتُ إن الله تعالى لم يجعل سُبُلَ قُرْبه محدودة، ولم يجعل على سبل المراتب الروحانية العالية ملائكة ليمنعوا الناس من الارتقاء فيها، بل إن سبل قربه ﷻ مفتوحة، وستظل مفتوحة حتى إذا أراد أحد أن يسبق النبي ﷺ في قرب الله تعالى فليسبقْه. إنما أقصد بقولي هذا أن الله تعالى لم يُعقْ طريق التقرب إليه، فإذا كان أحد يستطيع أن يسبق النبي ﷺ في قربه تعالى فليجرّبْ وليُرِنا ذلك! وحيث إن أحدًا لم يسبق النبي ﷺ حتى اليوم، ولن يستطيع في المستقبل، ورغم أن النبي ﷺ هو أفضل الناس جميعا، إلا أنه لا يجوز القول إن الله تعالى قد أوصل النبي ﷺ إلى هذا المقام جبرًا، ومنَع الآخرين من الوصول إليه قهرًا. كلا، بل إن سبل قرب الله تعالى مفتوحة، فمن أراد أن يتقدمه ﷺ فليحاول. هذا هو نفس المعنى الذي بيّنه الله تعالى

بقوله ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾.. أي أننا لم نمنع أحدًا من ذلك. فإن القرآن للناس جميعا، للغني والفقير، والعالم والجاهل، والأسود والأبيض، والشرقي والغربي، فمن شاء انتفع به.

وضمير المؤنث في قوله تعالى ﴿إنها﴾ يعود إلى الهداية أو الموعظة أو الذكرى المذكورة من قبل، وضمير المذكر في ﴿ذَكَرَه﴾ يرجع إلى القرآن الكريم، والتقدير: إن الهداية التي جاءت من الله تعالى تذكرةٌ، فمَن شاء ذكَره، أي ذكَر القرآنَ. كما يمكن إرجاع ضمير المؤنث في ﴿إنها﴾ إلى الذكرى أو إلى القرآن الكريم، والأَولى إرجاعُه إلى القرآن، لأن الآيات التالية تتحدث عنه خاصة، فاستخدم الله تعالى ضمير المؤنث مرة وضمير المذكر مرة أخرى، ليبين أن المراد هو القرآن. وحيث إن الله تعالى قد ركّز هنا خاصة على صفة الذِّكرى التي يتصف بها القرآن الكريم، فاستخدم ضمير المؤنث أيضًا.

نقطة جديدة: ويمكن تفسير هذه الآيات تفسيرًا لطيفا آخر، وهو أن نعتبر هذا الكلام من قبيل الهزء والتهكم، كقوله تعالى للكافر ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(الدخان: ٥٠).. أي كُلْ طعام الجحيم لأنك عزيز كريم، والمعنى أنك كنت تحسب نفسك من ذوي العزة والقوة والنفوذ، والحق أنك لم تكن كذلك، وإنما خدعت نفسك بهذه الفكرة. لو كنتَ كما ظننتَ، لما اضطررتَ اليوم لأكل الطعام الجهنمي الرديء. قال صاحب الكشّاف إن هذه الآية من قبيل الهزء والتهكُّم بمن كان يتعزز ويتكرم على الناس (الكشاف).. أي أن الله تعالى قد صدّق قول الكافر في الظاهر، بينما دحضه في الواقع، واعتبره غير معقول البتة.

وهذا الأسلوب التهكّمي شائع في اللغات الأخرى بما فيها لغتنا الأردية أيضًا، فمثلاً إذا كنتَ صديقًا حميمًا لشخص تريد له الخير دوما، فنسب إليك ما يعاكس سلوكك هذا، فتقول له: نعم، نعم، أنا عدوك، في حين أنك تقصد أني صديقك ولم أزل أخلص لك الود والنصح، فكيف تتهمني؟ فهذا الأسلوب تأييد في الظاهر وإنكار في الحقيقة. وهذا هو المقصود في قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حيث بين الله تعالى أن هذا العدو كان يتبجح أنه عزيز كريم، وأن محمدًا حقير ذليل

– والعياذ بالله – فاليوم سنلقي هذا العدو في الجحيم، ونقول له: ذُقْ هذا العذاب لأنك عزيز كريم.. والمراد: أنت كاذب في ادعائك؛ إذ لو كنت عزيزا كريما ما ذُقتَ هذا العذاب.

وعندي أن سورة "عبس" أيضًا تتحدث بهذا الأسلوب من الكلام. فذات مرة حضر شخص ضرير إلى النبيّ ﷺ وهو يتحدث مع بعض الكافرين، فأراد مقاطعة حديثه، فبَدَت على وجهه ﷺ أمارات الاستياء، فأعرض عنه محاولاً كبت استيائه. وحيث إن الكافرين يسعون دائمًا لبثّ الفُرقة بين المؤمنين، فاستغلّوا هذا الحادث للإضرار بالإسلام ببثّ الشبهات والوساوس في قلوب المسلمين، فأشاعوا بين القوم أن محمدًا ازدرى أحد أتباعه الفقراء ازدراءً شديدًا بسبب فقره، وسخط عليه في مجلس كان يضم شرفاء مكة. فأراد الله أن يكشف ضحالة موقفهم وسخف اعتراضهم، فتحدث عن الحادث بأسلوب التهكم والسخرية، فقال ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾.. أي أن رسولنا قطّب وجهه وأعرض لمجرد حضور ابن أم مكتوم الأعمى عنده! والمقصود أن الأصدقاء والأعداء كلهم معترفون بسموّ أخلاق رسولنا، والجميع يعرف أنه لا يحضر مجلسَه ﷺ ولا يلتف حوله إلا الفقراء، وأنه يعمل جاهدا ليل نهار لفكّ الرقاب وللنهوض بالفقراء والأرامل واليتامى والمساكين، فكيف يمكن لعاقل أن يصدّق أن هذا الشخص يقطّب وجهه ويعرض عن الأعمى، لمجرد فقره وعماه؟ فهذه التهمة نفسُها تبطل نفسَها. كما يقال في الفارسية إن الشمس دليل على وجودها. إن نسبة هذه التهمة إلى محمد رسول الله ﷺ تشكل بنفسها دليلا على بطلانها، فلا حاجة إلى أي دليل آخر.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾.. فقد ذكر فيه دليلاً عقليًّا ليكمل به هذا التفنيد، فبيّن أن الأمر لا يتعلق بالأعمى والبصير، بل المهم أن محمدًا رسول الله لا يدري مَن الذي سيهتدي ومَن لا يهتدي، ومن سيظل ثابتًا على الهدى، ومن يزلّ عنه. إنه ﷺ ملزم بظاهر الشرع، ولا يتدخل في الغيب الذي يخص الله، فهو وحدَه يعلم كيف تكون نهاية الذين نجدهم اليوم كافرين، وعلامَ يموت الذين نجدهم اليوم مسلمين. إن شرعنا يأمركم أن تهتمّوا أولاً بالذي يكلّمكم، أما الذي يأتي متأخرًا

فلا بد أن ينتظر حتى يأتي دوره للكلام. وقد عمل رسولنا بحكمنا هذا، ولا علم عنده بالغيب حتى يخبر مَن ذا الذي تنفعه الدعوة إلى الإسلام، ومن الذي لن تنفعه بل هي مضيعة للوقت.

لقد أتى على بلال ﷺ وقت كان فيه هدفًا للتعذيب في سبيل رسول الله والإسلام، حيث كان يُطرَح على الرمال المحرقة، ويُسحَب على الحجارة، ويقفز الصبيان على صدره العاري، ليرتد عن الإسلام، بينما كان عمر ﷺ في تلك الأيام يخرج مخترطًا سيفه ومتحينًا الفرصة لقتل محمد ﷺ (أُسد الغابة، والطبقات الكبرى، السيرة لابن هشام: إسلام عُمر). ولكن ما الذي حدث فيما بعد؟ لا شك أن بلال لقي عاقبة حسنى، ولكنه لم يبلغ درجةَ عمر رضي الله عنهما.

إذًا، فما كان لمحمد ﷺ أن يخالف عندها حُكم الشرع لمجرد أنّ أحد الفريقين كان كافرا في ذلك الوقت والآخر مسلما؟ إنه ﷺ لم يدْرِ كيف يكون مصير هؤلاء الكافرين في الظاهر اليوم. وفي رواية أن العباس كان أحد هؤلاء الكافرين الحاضرين في المجلس (فتح البيان). ومعلوم للجميع أن ابن أم مكتوم لم يساو العباس درجةً رضي الله عنهما، فالقوة التي نالها الإسلام بإسلام العباس، وكثرة استشارة الخلفاء الراشدين إياه والعمل بمشورته، لدليلٌ ساطع على مكانته العظيمة.

إذًا، لقد فنّد الله تعالى هذه التهمة بدليل عقلي أيضًا حين قال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾.

أما قوله تعالى ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ فهو أيضا من قبيل الهزء والتهكم بالكافرين؛ حيث أعاد الله تعالى طعن الكافرين بأن محمدًا يهتم بهم لمكانتهم اهتماما كبيرا ولا يهتم بالأعمى لفقره وبساطته. وكأنه تعالى قد قبِل بصحة طعنهم في الظاهر على سبيل الإنكار، ذلك كقول الشخص العادل لمن يطعن في عدله: نعم، أنا لا أعرف العدل! مع أنه يقصد أن نسبة عدم العدل إليه بحدّ ذاته دليل على زيف تهمته. فهذا هو المراد الرباني من ذكر هذا الاعتراض، إذ ذكر الله بعده دليلا عقليًا على بطلانه كما فعل من قبل، فقال ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾.. أي أن هذا الطعن باطل بداهة، وخلاف للعقل، لأنهم لو كانوا يعقلون

لعلموا أن أمر هداية هؤلاء الكافرين الذين حضروا مجلسك أو عدم اهتدائهم ليس في يدك ولا من مسؤوليتك.

إذًا، فكأن الله تعالى قال لرسوله في الآيات السابقة إنك لا تعلم ما إذا كان ابن أم مكتوم سيموت على الهدى أم لا، أما في هذه الآية فبين لرسوله أنك لن تُسأل عن عدم اهتداء هؤلاء الكافرين. إذًا، فأين مصلحتك في عدم اهتمامك بابن أم مكتوم، وفي اهتمامك بالكافرين؟ كلا؛ ليس في إعراضك عنه واهتمامك بهم مصلحة شخصية لك؛ وبالتالي ينبغي أن يدرك كلُّ عاقل أن هناك غرضًا آخر لما حصل، ألا هو ما قد بيّنّاه من قبل؛ أعني ضرورة العمل بظاهر أحكام الشرع.

أما قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى﴾.. فهو أيضا من قول الكافرين الطاعنين بالرسول ﷺ، وقد جاء أيضًا على سبيل الهزء والتهكّم، والمراد إنكاره وتفنيده في الحقيقة. والدليل الساطع القطعي على صحة موقفي هو قول الله تعالى إثر ذلك ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.. أي أن ما قيل من قبل باطل تمامًا. والواضح أن ما قيل من قبل هو طعنُ الأعداء بالرسول ﷺ بأنه قد تصرف مع الأعمى بسوء الخُلق، إذ أعرض عنه مهتمًا بالأغنياء. إذًا، أفليس غريبًا أن نأخذ بالرأي الذي قد فنده الله تعالى بنفسه؟ فإن كلمة (كلا) قد أكدتْ أن كلّ المطاعن السابقة باطلة. فثبت من هنا أن كل ما ذكر الله تعالى من قبل – بما فيه الطعن في الرسول ﷺ – إنما ذكره على سبيل الهزء والتهكم؛ فصدَّقه في الظاهر وفنّده في الواقع، كما هو مفهوم الأسلوب التهكمي. فمن المعروف أن (كلا) تأتي للاستنكار الشديد للمذكور من قبل، فقد ورد في كليات أبي البقاء: "قال عمر بن عبد الله: إذا سمعتَ الله يقول: كلا، فإنما يقول: كذبتَ" (الكليات: فصل الكاف). فثبت أن المراد من قول الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أن المطاعن المذكورة من قبل كلها باطلة، بدليل أن القرآن كتابُ موعظة، ومن واجب محمد رسول الله أن يقرأه على الكافر وعلى المؤمن أيضًا، فإذا قرأه على الكافرين فلا يحق للمؤمن أن يتدخل ويقاطع حديثه، فمحمد مصيب تماما في عدم رده على سؤال هذا المؤمن.

وورد في مغني اللبيب عن كلمة (كلا): "هي عند سيبويه والخليل والمبرّد والزجّاج وأكثرِ البصريين حرفٌ معناه الردع والزجر"، لا معنى لها عندهم إلا ذلك، حتى إنهم يجيزون أبدًا الوقفَ عليها والابتداءَ بما بعدها، وحتى قال جماعة منهم: متى سمعتَ (كلا) في سورة فاحكُمْ بأنها مكية، لأن فيها معنى التهديد والوعيد. وأكثرُ ما نـــزل ذلك بمكة، لأن أكثر العُتُوِّ كان بها". (مغنى اللبيب: الباب الأول في تفسير المفردات، حرف الكاف)

وقد اعترض صاحب "المغني" على ذلك قائلا: فيه نظرٌ إذ لا يظهر معنى الزجر في ﴿كلا﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۞ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾". (المرجع السابق).

ولكن اعتراضه باطل بداهةً، لأن الكلمات القرآنية نفسها تؤكد أن (كلا) جاءت هنا لتفند اعتراضًا، إذ قيل إثرها فورا: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، مما يدل على أنه تعالى يردّ هنا على منكري يوم الجزاء. فكيف يقال أن (كلا) لا تفيد هنا الوعيد والتهديد، بل تفيد الاتفاق والوداد والوعد؟!

إذًا، فإن كبار النحويين واللغويين يروْن أن لفظ (كلا) يأتي لتفنيد المنكرين والمخالفين ويتضمن معنى التهديد والوعيد، فثبت بقوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أن الله تعالى لا يصدِّق هنا التهم الواردة في الجُمل السابقة، إنما يفند أقاويل أعداء الإسلام. لو كان الله تعالى يريد تصديق هذه التهم، لما قال بعدها: ﴿كلا﴾، بل قال إن هذه التهم كلها صحيحة. وحيث إن الله تعالى ذكر هذه الأمور أولاً ثم أتبعَها بقوله ﴿كلا﴾، فثبت أنها تُهَم رمى بها الأعداءُ النبيَّ ﷺ بغير حق، وقد ذكرها الله تعالى في وحيه على سبيل الهزء والتهكم، مبينًا أن هذا ما تقولون عن رسولنا، لكنه قول باطل، لأن رسولنا بريء مما تقولون.

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٤﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٥﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٦﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

مُكَرَّمَة: كرَّمه: عظَّمه ونـــزَّهه. (الأقرب)

فقوله تعالى: ﴿مُكَرَّمَة﴾ يعني معظَّمة ومنـــزَّهة عن كل نقص.

مرفوعة: رفَعه رَفْعًا ضدُّ وضَعه. ورفَعه إلى السلطان رُفعانًا: قرَّبه. (الأقرب)

مُطهَّرة: طهَّره أي جعَله طاهرًا. (الأقرب)

سَفَرة: جمعُ سافِرٍ، ومعناه المسافر. قيل: لم يُرَ له فِعْل؛ والسافِرُ أيضًا الكاتب. (الأقرب)

كِرام: جمعُ كريم. والكريم: ذو الكرم؛ قيل: الكريم قد يُطلَق على الجواد الكثيرِ النفعِ؛ وقد يطلق من كل شيء على أحسنِه. والكريم مِن كل قوم ما يجمَع فضائلَه. وقيل: الكريم مَن يوصل النفعَ بلا عوض. فالكرمُ هو إفادةُ ما ينبغي لا لِعِوَضٍ (الأقرب).

بَرَرَة: جمعُ بَرٍّ وبارٍّ. وبَرَّ والدَه: أحسنَ الطاعة إليه، ورفُق به وتَحرّى مَحابَّه وتَوقّى مَكارهَه. (الأقرب)

التفسير: لقد وصف الله تعالى القرآن بكلمة ﴿صُحُف﴾، لا بكلمة (صحيفة)، وهذا في الواقع إشارة إلى شتّى سور القرآن الكريم التي أنـــزلها الله تعالى بحسب حكمته منجَّمة متفرِّقة. يظن البعض أن الله تعالى قد جمع هذه القِطَع المختلفة دونما حكمة، ولكن القرآن الكريم لا يسلّم بنـــزولها مفرَّقة فحسب، بل بوجودها المنفصل أيضًا، معتبرا كل سورة صحيفة مستقلة. وكأن الله تعالى قد أشار باستخدام كلمة صحف أن كل سورة قرآنية تشتمل على موضوع منفصل مستقل، وإلا فلا يمكن أن تُسمّى صحيفة.

كما أشار الله تعالى باستخدام كلمة ﴿صُحُف﴾ إلى حقيقة أخرى مذكورة في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى:١٩-٢٠).. حيث بيّن أنه تعالى قد جمع في القرآن كل ما كان في الصحف السابقة من أسمى التعاليم الأخلاقية والروحانية التي تتفق مع الفطرة الإنسانية. فرغم أن القرآن كتاب واحد، ولكنه يجمع صحف الأنبياء جميعًا، ولذلك وُصف بالصحف بدلا من الصحيفة.

وقد سُمّي كتاب موسى عليه السلام أيضا صُحُفًا في هذه الآية من سورة "الأعلى" لاحتوائه على تعاليم الأنبياء السابقين كلهم. وسُميت صحيفة إبراهيم عليه السلام صُحُفًا لاشتمالها على صحف نوح وبعض الأنبياء الآخرين، وقد سمي القرآن أيضا صُحُفًا لأنه قد حوى تعاليم كافة الأنبياء المبعوثين من آدم حتى رسول الله عليهم السلام، فما من تعليم تحتاج إليه الإنسانية إلا قد ذكره القرآن الكريم. فكما أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء إذ جمع في وجوده محاسن الأنبياء السابقين جميعا، كذلك سمي كتابه صُحُفًا، لأنه قد جُمعت فيه صحف الأنبياء السابقين كلهم. والواقع أنه ما من نبي بُعث في الدنيا إلا وجاء معه بصحيفة، ولكن هذا لا يعني أن كل نبي جاء بشريعة جديدة وأحكام جديدة، بل المراد من الصحيفة هنا رسالة حقة ملائمة لعصرها، ولذلك يذكر القرآن صحف إبراهيم عليه السلام أيضًا، مع أنه لم يأت بشريعة جديدة، بل كان تابعًا لنوح عليه السلام، كما قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:٨٤). عندما بُعث آدم أتى بصحيفة، ولما بُعث نوح بعده أتى بصحيفة، فقد صارت هنالك صحيفتان، وكلما أتى الأنبياء بعدهما حملوا معهم تعاليم الأنبياء السابقين أيضا، حتى بُعث النبي ﷺ الذي أُعطي كتابًا احتوى على صحف الأنبياء السابقين كلهم، ولذلك وُصف القرآن بأنه ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾. وهذا الأمر يماثل الحقيقة المذكورة في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾(المرسلات: ١٢)، حيث أُشير فيه إلى بعثة المسيح الموعود. فمع أن هذا المبعوث رسول واحد، لكنه سُمّي رُسُلاً، ذلك لأنّ دعوته تتضمّن رسالات الأنبياء السابقين جميعًا، ولأنه كان ظلاً وبُروزًا لكل نبي سابق. وقد أُشير إلى هذا الأمر نفسه في إلهام وصف اللهُ تعالى فيه

المسيحَ الموعود بقوله: "جَرِيُّ اللهِ في حُلَلِ الأنبياء" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٦٠١).. أي قد جاء إلى الدنيا بَطَلُ الله في ثياب الأنبياء جميعًا. كذلك ليس القرآن صحيفة واحدة، بل هو مجموعة كافة التعاليم التي جاء بها الأنبياء السابقون، بالإضافة إلى التعاليم الإضافية التي قد نـــزلت على نبينا ﷺ، ولذلك وَصَفه الله تعالى بقوله ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۞ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾.

وهذه الآيات رسمٌ رائع لترتيب القرآن الكريم، حيث ذكر الله تعالى ثلاث صفات للقرآن الكريم كالآتي: (مكرمة ومرفوعة ومطهرة)، ثم ذكَر إزاءها ثلاث خصال للذين سيكونون حَمَلةَ القرآن كالآتي: (سفرة وكرام وبررة). والصفة الأولى المذكورة هنا للقرآن هي ﴿مُكرَّمة﴾، ومعناها معظَّمة ومنـــزَّهة عن كل نقص وخطأ.. أي أن القرآن كتاب معظّم وسوف تُرسى عظمتُه في الدنيا. وهنا ينشأ سؤال وهو: من البديهيّ أن المؤمنين بأي كتاب سماوي في العالم يُعظّمونه بقلوبهم ويحترمونه، وإن كان بعض الصحف يلقى من أهله تعظيمًا أكثر مما يلقاه غيره. وحيث إن كل كتاب سماوي يلقى التعظيم من قبل أهله، فلماذا، يا ترى، وُصف القرآن بوجه خاص أنه ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾؟ والجواب أن هذا إشارةٌ أن هذا الكتاب سيلقى تعظيمًا أكثر من أي كتاب سماوي آخر؛ ذلك لأن الصحيفة التي تحظى بالتكريم سلفًا إذا وُصفتْ بأنها مكرَّمة، فإنما يعني ذلك أنها ستلقى تعظيمًا أكثر من الكتب الأخرى. وبالفعل لا نجد في العالم كتابا يلقى من التكريم ما يحظى به القرآن الكريم. إنه يُحفَظ عن ظهر قلب، ويُقرَأ في الصلوات، ويوجد في الدنيا قوم يعملون به. أما الكتب الأخرى فلن تجد في الدنيا قومًا يعملون بكتاب واحد منها؛ فمثلاً لن تجد قومًا يعملون بالفيدا أو بالتوراة إلا ما شذ وندر، ثم إن هؤلاء أيضًا لا يعملون به إلا قليلا، أعني أنهم يعملون ببعضه، ولا يعملون ببعضه الآخر. أما الإنجيل فقد قُضِيَ عليه تمامًا من الناحية العَملية؛ فقبلَ أيام قد أفتى القساوسة في إنجلترا – خلافا لتعليم الإنجيل – أنه يمكن للنساء حضور الكنائس حاسرات الرأس، فتصدى لهم داعيتُنا هناك الأستاذ جلال الدين شمس وقال لهم: ما هذه الفتوى التي

أصدرتموها؟ فإن إنجيلكم يعلِّم عكس ذلك✪! ولكنهم لم يجيبوه بشيء. والأدهى من ذلك أن المسيحيين قد اعتبروا الشرع لعنة (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٢)، وإذا كان الشرع لعنة عندهم فكيف ترغب قلوبهم في العمل به يا ترى؟ فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يطبَّق حتى في هذا العصر الذي هو زمن ضعف الإسلام. فمهما قلنا عن المسلمين غير الأحمديين، إلا أنه لا يسعنا إنكار أن الملايين منهم يحبون من الصميم أن يعملوا بالقرآن الكريم. ومهما بلغ أحدهم من الضعف عمليًا، إلا أنه لا تزال في فؤاده رغبة للعمل بالقرآن الكريم والفوز برضا الله تعالى. هذا ما يتميز به القرآن زمن انحطاط المسلمين، أما في الزمن الذي كان القرآن حاكمًا على قلوبهم فحدِّثْ ولا حرج عن مدى تمسُّكهم به؛ حيث حكَم القرآنُ كلَّ شُعْبة من شُعَب حياتهم بما لا مثيل له.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾.. هو منـــزَّهة عن كل خطأ وعيب. وقد تحلّى القرآن بهذه الميزة بمنتهى الروعة والكمال، إذ لا يوجد فيه سوى وحي الله الخالص، حتى إن وَضْع أي قولٍ لرسول الله ﷺ في القرآن مرفوض. فمثلا لو كان هناك حديث ورد في الصحاح الستة كلها، وقد اتفق على صحته المحدثون جميعًا، فأيضًا إدراجه في القرآن مستحيل. إذًا، فقد جعل الله تعالى القرآن منـــزهًا عن كل ما لم يكن من كلامه ﷻ؛ بحيث إن ألدَّ أعداء الإسلام أيضًا لا يجدون مناصًا من الاعتراف بأن القرآن منـــزّهٌ عن أيّ عبث وتلاعُب من قبل الناس. فها هو "وليام موير" العدو اللدود للإسلام الذي قد أكثر الطعن في القرآن، لم يجد بدًا من الاعتراف فيما يتعلق بقضية حفظ القرآن من التحريف، بأن القرآن الموجود بين أيدينا اليوم هو نفس ما كان عليه قبل ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن. لقد اعترف

✪ جاء في العهد الجديد: "كَذلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ يُزَيِّنَّ ذَوَاتِهِنَّ بِلِبَاسِ الْحِشْمَةِ، مَعَ وَرَعٍ وَتَعَقُّل، لا بِضَفَائِرَ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ لآلِئَ أَوْ مَلابِسَ كَثِيرَةِ الثَّمَنِ، بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِنِسَاءٍ مُتَعَاهِدَاتٍ بِتَقْوَى اللهِ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ. لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ، وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلا تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ." (رِسَالَةُ بُولُسَ الأُولَى إِلَى تِيمُوثَاوُسَ ٢ : ٩-١٢)

بذلك في أحد كتبه بعد تسجيل مزاعم القسيسين عن تحريف القرآن الكريم، حيث فنّد جميع أقوالهم بالأدلة الدامغة، معترفًا بأننا نستطيع القول جزمًا إن القرآن الموجود اليوم هو نفس ما قدّمه محمد إلى العالم.

وقد اعترف المستشرق الألماني الشهير "نولدكه" أيضًا بهذه الميزة القرآنية، وقد قال إن من المحال القول إن القرآن تعرّض للتحريف بأيدي البشر. علمًا أن "نولدكه" أيضًا من أعداء الإسلام، ولكنه أكثر المستشرقين فحصًا وتحقيقًا، وقد وجدتُه يصيب كبد الحقيقة بشكل مذهل أحيانًا، ويبدو أنه قد تدبّرَ في القرآن وفَحَصَه بصدق، ولذلك كتب: لا أقبل أبدًا أن شيئًا قد أُضيف إلى القرآن فيما بعد. كلا، بل إنه لا يزال حتى اليوم منـــزهًا عن عبث الناس كما كان في عهد محمد. وقال: قولوا، إن شئتم، إن القرآن من افتراء محمد، ولكن من المحال أن تقولوا إنه قد حُرّف فيما بعد. كلا، بل إنه هو هو كما كان في عهد محمد.♦

إذًا، فالقرآن الكريم صُحفٌ مكرَّمة، أي منـــزَّهة أيضًا عن أي خطأ لفظي أو معنوي، ولا يُباريه في هذه الميزة أيٌّ من الصحف السماوية.

♦ يقول وليام موير ما نصه:

"We hold the Cur'an to be as surely Mahomet's word, as the Mahometans hold it to be the word of God."

ويقول أيضًا:

"What we have, though possibly created by himself, is still his own."

ويضيف قائلا:

"We may upon the strongest presumption affirm that every verse in the Qur'an is genuine and unaltered composition of Muhammad himself".

(Life Of Muhammed: by Sir William Muir p. 562-563)

ونص ما قاله المستشرق الألماني نولدكه هو كالآتي:

"Slight clerical errors there may have been, but the Koran of Othman contains none but genuine elements- though sometimes in a very strange order. All efforts of European scholars to prove the existence of later interpolations in the Koran have failed."

(الموسوعة البريطانية، المجلد ١٥ تحت: Koran)

أما الخصال الحميدة التي وُصف بها حَمَلَةُ القرآن هنا إزاء هذه المزايا القرآنية فأُولاها أنهم سَفَرَة. فكأن الله تعالى قد ذكر صفة ﴿سَفَرة﴾ إزاء الميزة القرآنية ﴿مُكرَّمة﴾ ليبيّن أن هؤلاء السفرة سيكونون سببًا لعظمة القرآن. والسَفَرة معناها المسافرون أو الكاتبون. ومعنى "المسافرون" إشارةٌ إلى سرعة انتشار القرآن في العالم، إذ سيوضع في أيدي قومٍ مسافرين، بمعنى أن المسلمين سيخرجون في العالم حاملين القرآن بأيديهم، فينشرون تعاليمه في شتى أنحاء المعمورة. ويكشف لنا التاريخ أنه بعد وفاة النبي ﷺ فورًا خرج بعض الصحابة إلى فارس، وبعضهم إلى أفغانستان، وبعضهم إلى الصين، وبعضهم إلى شتى الجُزر، وهكذا قد انتشر الإسلام في حياتهم إلى أقاصي الصين من جهة، وإلى الجَزائر من جهة أخرى.. أي قد انتشر القرآن وتعاليمه في العالم المعروف يومئذ في حياة الصحابة وبأيديهم، حتى إن أهل بعض تلك البقاع يدّعون أن المصاحف التي أتى بها الصحابة إليهم لا تزال محفوظة عندهم (http://www.quran.org.uk/jeb quran manuscripts.htm). ولذلك قال الله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾.. أي أن هذا القرآن سيوضع بأيدي قوم يُكثِرون من السفر، وبالتالي يعملون على نشر القرآن في مختلف الأقطار.

ومن معاني (سَفَرة): كَتَبَة، فقوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أن هذا القرآن سيوضع في أيدي قوم كاتبين، فلا يحفظونه عن ظهر قلب فحسب، بل بالكتابة أيضًا دونما تأخير. فهذه الآية دليل على أن القرآن الكريم قد صار محفوظا بصورة كتاب في زمن الصحابة. يطعن العدو أن القرآن قد كُتب لاحقا، ولكن الله تعالى يعلن هنا أننا سنضع هذا القرآن بأيدي سفرة، أي بأيدي قوم يكتبونه فورًا، غير مكتفين بتلاوته بألسنتهم فقط.

إن النصارى يطعنون دائما بالقرآن بأنه قد كُتب بعد زمن بعيد، مع أن الثابت تاريخيًا عن كتابهم الإنجيل أنه قد دُوّن بعد انقضاء مئة وثمانين سنة، كما أن التعاليم المنسوبة إلى موسى عليه السلام قد كُتبت بعده أيضا بزمن طويل، أما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد الذي كان يُحفَظ عن ظهر قلب من جهة، كما أنه قد وُضع في

أيدي سفرة، أي قوم كاتبين كتبوه أولاً بأول. والثابت تاريخيًّا أن كل القرآن الكريم كان قد كُتب في حياة الصحابة أنفسهم.

كما أن قوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى إرساء عظمة القرآن وتكريمه في العالم كله، ذلك أن التعليم الذي يظل محفوظًا في قُطر واحد فقط لا يبلغ شأوَ عظمة التعليم الذي ينتشر في الدنيا كلها؛ فحيث إن القرآن الكريم في أيدي قوم مسافرين فينتشر تعظيمه وتُرسى عظمته في العالم كله، ولن ينحسر في قُطر واحد.

ثم إن كلمة (سفرة) لا تشير إلى الكتابة وحدها، بل إن جذر هذه الكلمة (س ف ر) ينطوي على معاني الكشف والإظهار أيضًا✪، فقوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ أيضًا إلى أن كُتّاب القرآن سوف يكشفون مفاهيمه ويوضحون غوامضه أيضا.. أي أنهم سيكتبون تفسيره لبيان حقائقه وإظهار معارفه، وهكذا لن يعود القرآن محفوظًا عن التحريف اللفظي فحسب، بل عن التحريف المعنوي أيضًا.

وإن ورود كلمة (سفرة) إزاء (مكرمة) إشارةٌ إلى أن الذين سيؤمنون بالقرآن سيعظمونه تعظيما كبيرا، بل سينتشرون في العالم ويجعلون أهله يعظّمونه. ثم إنهم يعملون على حماية القرآن وحفظه كتابةً، مما يزيد القرآن تعظيما وتكريما. لقد بيّنتُ أن أعداء الإسلام كأمثال "وليام موير" و"نولدكه" أيضًا قد اضطروا للاعتراف بحفظ القرآن من التحريف تماما، مما يؤكد أن كتابة القرآن قد زادته تعظيما حتى لم يملك العدو إلا الاعتراف بهذا الجانب من عظمته.

ثم إن بيان المعارف القرآنية أيضا زاد في عظمة القرآن كثيرا جدًّا، إذ كان من العوامل التي أدت إلى حفظه المعنوي علاوة على حفظه الظاهري، حيث وضع الله تعالى القرآن الكريم في أيدي قوم يكشفون غموضه ويبيّنون مقاصده. وهذا الأمر يتضمن الإشارة أيضا إلى أن لغة القرآن ستنتشر في العالم وتبقى حيةً، ولن يعاني الناس في بيان مفاهيم القرآن الكريم.

✪ يقال: "سفرت الريحُ الغيمَ عن وجه السماء: كشطتْه. وسفرت المرأةُ: كشفتْ عن وجهها. وفي الكليات: السفْر كشفُ الظاهر، ومنه "السفير لأنه يكشف مراد المتخاصمين". (الأقرب)

والصفة الثانية التي وصف الله بها صحف القرآن هنا أنها ﴿مرفوعة﴾، والصفة الثانية التي وصف بها الصحابة إزاء هذه الصفة القرآنية هي أنهم ﴿كرام﴾. والمرفوعة تعني المعظَّمة، وهذه الصفة توجد في القرآن الكريم في الظاهر أيضًا، حيث تجد المسلمين لا يضعون القرآن إلا في مكان مرتفع، بل إذا لم يضعه أحد في مكان عال يخاصمونه متهمين إياه بإهانة القرآن. فثبت أن هذه الصفة توجد في القرآن في الظاهر أيضًا؛ إذ لا توجد في الدنيا أمة عالمية تعظّم كتابها السماوي كما يعظّم المسلمون القرآن الكريم. والحق أنه لا توجد أمة عالمية تضع كتابها المقدس في مكان مرفوع؛ فمثلاً لا يضع النصارى إنجيلهم ولا اليهود توراتهم في مكان مرتفع، إنما يتمتع بهذا الشرف العظيم القرآنُ الكريم فقط، حيث يحتفظ به المسلمون في مكان مرتفع، ولا يحتملون وضعه في مكان منخفض.

لقد بينتُ من قبل أن الله تعالى قد ذكر إزاء الصفات الثلاث للقرآن ثلاث صفات لحَمَلَته، وذلك للإشارة إلى أن بين القرآن وبين حملته علاقة قوية وكأنها علاقة اللازم والملزوم. وبالفعل ترى أن صحف القرآن أصبحت مكرَّمة، لكونها قد وُضعتْ بأيدي سفرة، أي بأيدي مسافرين خرجوا بالقرآن إلى شتى الأقطار. ثم أصبح هؤلاء السفرة مكرَّمين، لأنهم حملوا في أيديهم كتابا كانت فيه صحف مكرمة. فثبت أن أحد الأمرين كان نتيجة حتمية للآخر. فإن المرء لا يتحمس لأن يخرج إلى العالم حاملا شيئا ما، إلا إذا كان يعتبره مكرَّمًا معظَّمًا، وكان على يقين أن نشره سيؤدي إلى عزته هو، فهو عندما يقوم بنشره فالنتيجة الحتمية أنه نفسه ينال التكريم؛ إذ نشر شيئًا ذا شرف.

إذًا، لقد أصبح القرآن مكرّمًا بسبب هؤلاء السفرة، ونال هؤلاء السفرة التكريم بسبب القرآن. لقد أدى القرآن إلى عزّ المسلمين، وتسبّبَ المسلمون في زيادة شرف القرآن. إن مثل القرآن والصحابة كمثل الآلة التي تدور، فكان القرآن يرفع الصحابة من جهة، وكان الصحابة يرفعونه من جهة، وكان الصحابة يعظمون القرآن من ناحية، وكان القرآن يشرفهم من ناحية أخرى.

والصفة الثانية لِصحف القرآن هنا هي ﴿مرفوعة﴾، والصفة الثانية للصحابة هنا هي ﴿كرام﴾، والبَديهي أن الذي بيده شيء رفيع، لا بد أن يصبح من الكرام ذوي الرفعة، ومن الناحية الأخرى فإن الشيء الذي يُعزّه الكرام لا بد أن يكون ذا شأن ورفعة، فإنك ترى في الدنيا أن الشخص الكريم إذا أعزّ شخصًا قال الناس: هذا إنسان معزز لأن ذلك الشخص الكريم يعزه أيضًا، وهكذا يضطرون لتكريمه وإعزازه؛ وإذا أكرم هذا الشخص الآخرين ذاع صيته بين القوم بأن فلانا من الشرفاء، فهذان الأمران، كما قلتُ، كسلسلة جهاز تدور على الدوام. إن الذين لا يعرفون محاسن شيء لا يتأثرون به إلا إذا رأوا شخصا كريما يعظمه ويثني عليه، فيبدءون في تقديره وتعظيمه. فمثلا إن الذين يؤمنون بالقرآن يعظّمونه تلقائيًّا، ولكن من أكبر الدلائل على عظمة القرآن عند المسيحيّين أن ملك الروم كان مدركًا لعظمة القرآن حيث قال: أي شك في عظمة كتاب يؤمن به شخص عظيم كعُمَرَ (رضي الله عنه)؟!

والواقع أن عمر لم يصبح عظيمًا إلا نتيجة عمله بالقرآن الكريم. وهذا يعني أن ملك الروم يعترف بعظمة القرآن لأن شخصا عظيما كعُمَرَ رضي الله عنه يؤمن به، أما مَن يعرف حقيقة عُمَر رضي الله عنه فيقول: إن القرآن كتاب عظيم، لأن عمر قد حاز هذه المكانة العظيمة بإيمانه بالقرآن الكريم.

باختصار إن من سنة الله تعالى أنه إذا اجتمعتْ حقيقتان فلا تفتأ إحداهما تدعم الأخرى، ولذلك وصف الله القرآن هنا بأنه في صحف مرفوعة معظمة. والدليل على ذلك أن المؤمنين به سينالون به العزة. وإذا نالوا العزة نال القرآن عزًّا أكثر، لأن الناس سيقولون: انظروا إن كبار الشرفاء يؤمنون به أيضًا. ثم تتكرر هذه العملية؛ لأن هذه العظمة الإضافية التي حظي بها القرآن الكريم ستحثّ مزيدًا من الناس على أن يختبروا بأنفسهم العملَ بالقرآن، فينالون العزّ؛ وبالتالي سيعترف مزيد من الناس بعظمة القرآن برؤية عظمة هؤلاء، وهلمّ جرًّا. فالقرآن يجعل الناس كراما، وهؤلاء الكرام يؤكدون كونه صحفًا مرفوعة. فكأن قول الله تعالى ﴿مكرّمة﴾ إشارة إلى العظمة الذاتية للقرآن الكريم، أما قوله تعالى ﴿مرفوعة﴾

فإشارة إلى أن القرآن سيجعل المسلمين كراما، فيجعلون القرآن صحفا مرفوعة حيث ينتشر المسلمون في العالم كله، فينال القرآن رفعة جديدة.. أي أنه بسبب كونه محبوبا للملوك الكرام يصبح مرفوعا في العالم كله حتى يضعه الجميع على الرأس والعين.

والصفة الثالثة التي ذكرها الله تعالى هنا لصحف القرآن الكريم هي ﴿مطهَّرة﴾، والصفة التي وصف الله بها الصحابة إزاءها هي ﴿بررة﴾، ومفردها بَرٌّ، يقال بَرَّ والدَه.. أي أحسن الطاعة إليه، ورفق به، وتحرَّى مَحابَّه، وتوقَّى مَكارهه (الأقرب). إذًا فكلمة (بررة) تتضمن على إيجازها مفاهيم واسعة جدًّا، وتبيّن مزايا حَمَلة القرآن الكريم؛ إذ تعني أنهم سيطيعون القرآن طاعة كاملة، وينشئون معه علاقة وطيدة كاملة، ويسعوْن جاهدين لأن يتمسكوا بما يأمر به القرآن ويتجنبوا ما ينهى عنه.

لقد أشار الله تعالى بوصف صحف القرآن ﴿مطهرة﴾ ووصف الصحابة بكونهم ﴿بررة﴾ إلى أن القرآن ليس فيه ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية، بل هو متّسم بما ينمّي الفطرة ويطوّرها، ومنـــزه عن كل ما يفسدها ويخربها، لذلك فالذين يكونون على صلة مع هذا الكتاب سيكونون مثله، حيث يعملون جاهدين بكل ما يأمر به وينتهون عن كل ما نهى عنه؛ وهكذا يصبحون بررة، أي متقين كاملي التقوى. أما إذا لم يبلغ الإنسان هذا المقام ولم يلتزم بالقرآن الكريم كل الالتزام، فلن يُعتبر من البررة، ولا من الذين يعتبرون القرآن صحفا مطهّرة، إذ لو أيقن المرء بأن القرآن مطهّر يأمر بكل ما يشفي غليل الفطرة الإنسانية وينهى عن كل ما يمسخها، لسعى جاهدا للعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه، ولكنه إذا لم يفعل ذلك ثبت أنه لا يؤمن بكون القرآن مطهّرًا، ولا يريد أن يدخل زمرة البررة. والحق أن الله تعالى إنما جعل كلمة ﴿بررة﴾ إزاء ﴿مطهرة﴾ للإشارة إلى هذا الأمر الهام. فعندما يصبح الناس بررة بعملهم بالقرآن الكريم، فسوف يجعلون صحف القرآن مطهَّرةً مرة أخرى؛ ذلك لأن الإنسان إذا أصبح من البررة وعمل بالقرآن ونفّذ أحكام الله تعالى فلا بد أن تنـــزل عليه الفيوض الروحانية من عند الله تعالى، لأن من سنة الله

تعالى أن يترل فيوضه على الإنسان إذا سارع في الخيرات وسعى للتقرب إليه سبحانه. وإذا نـــزلت الفيوض الإلهية على البررة نتيجة عملهم بالقرآن الكريم نسبوها إليه، مما يؤكد طهارة القرآن الكريم أكثر فأكثر. ومثاله أنه مما لا شك فيه أن القرآن كان مطهّرًا سلفًا، ولكن لما بعث المسيح الموعود عليه السلام أثبت طهارة القرآن الكريم أيما إثبات. ولكن السؤال الذي ينشأ هنا: من الذي جعل المسيح الموعود مِن البررة؟ الجواب هو القرآن نفسه. فهذا يعني أن القرآن عمل على تطهير المسيح الموعود، والمسيح الموعود كشف الغطاء عن جوانب طهارة القرآن. كان الناس قبل بعثة المسيح الموعود عليه السلام يعزون إلى القرآن الكريم شتى الأخطاء، فأثبت حضرته عليه السلام بطلان تلك العقائد الخاطئة والتعاليم الفاسدة. وهكذا جعل القرآن مطهّرًا. وعندما جعله مطهّرًا فكان لزاما أن يزداد برًّا. إذًا، فالصفة الثالثة للقرآن الكريم أنه مطهّر، والذين يعملون به يدخلون في البررة، وهؤلاء البررة يعملون على تطهير القرآن ثانية، فيزيدهم القرآن برًّا مرة أخرى، وتستمر هذه العملية بلا انتهاء. لقد ثبت مما سبق ذكره أن ظهور عظمة هذا الوحي ليس بحاجة إلى أسباب مادية، بل هي منوطة بصفاء القلوب. وكأنما يبين الله تعالى هنا أن البررة سينتفعون من القرآن الكريم، أما من لم يكن من البررة فلن ينتفع منه، فلا يمكن القول إن فلانًا كبير أو صغير أو أن فلانًا من العلماء أو الجهلاء، إذ لا مجال هنا للشرف الظاهري ولا للعزة الظاهرية ولا للعلم الظاهر؛ إنما ينتشر القرآن ويزدهر بأيدي سفرة كرام برررة، سواء كانوا في الظاهر من كبار القوم أو من صغارهم، من أثريائهم أم من فقرائهم. وبالفعل نرى أن الله تعالى قد وفّق لخدمة الإسلام أُناسًا كانوا مِن الأُسر العريقة، وأيضًا أناسًا كانوا من الفقراء البسطاء؛ فكان علي وحمزة وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – من أُسر عريقة جدًّا، بينما كان زيد وبلال وسمرة وخباب وصهيب وعامر وعمار وأبو فكيْهة – رضي الله عنهم– مِن الطبقة الدنيا. إذًا، فقد اخْتير خدام القرآن من كبار القوم ومن صغارهم أيضًا، ولذلك يقول الله تعالى إنه لباطل سؤالكم: من أين يأتي هؤلاء الخدام، كما هو باطل تفكيركم أن فلانا فقط يصلح لخدمة الدين، وأن فلانا لا يصلح. كلا، بل إن هذا الأمر يتوقف على تقوى

القلوب، لا بظاهر الحال، ولذلك نحن أنفسنا ننتخب هؤلاء الخدام. إن القرآن متّسم بكل ما يجذب الناس إليه، ومَن لم تجتذبه محاسن القرآن، فلا يستحق العزة الحقيقية في هذا العصر البتة.

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

قُتِلَ الإنسان: قَتَل الله الإنسان: لَعَنه. (الأقرب)

التفسير: جاء قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ بالنظر إلى ما رسمته الآيات السابقة من محاسن القرآن رسمًا رائعًا، والمراد: ما أشدَّ كفرانًا بنِعَم الله تعالى هذا الإنسانَ المعرض عن القرآن واللاهي عن أحكامه! ذلك الكلام العظيم الذي فيه صحف مكرمة مرفوعة مطهّرة، وهو ليس كلامًا مقدسًا مطهّرًا فحسب، بل إن من مسّه أصبح طاهرا، وكأنما هو كالحجر السحري الذي يُزعَم عنه أنه إذا لمس شيئا حوّله ذهبًا، فهو ليس مكرَّمًا فحسب، بل الذين يعملون به يصبحون كرامًا، وهو ليس مطهَّرا فقط، بل مَن عمل به أصبح من الأبرار الأطهار. وما دام القرآن يبلغ هذه العظمة، فقُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه! أي الويل لمن يعرض عن مثل هذا القرآن، لأن إعراضه دليل على شدة كفرانه بنعمة الله. فقد عُرض عليه القرآن وأُتيحت له الفرصة ليعمل بأحكامه ويدخل في زمرة قوم سفرة كرام برزة، ولكنه أعرض عنه. أما لو كانت محاسن القرآن لازمة – أي غير متعدية – لَحُقَّ للمرء أن يقول أنه لا يراها فيه، ولكن محاسن القرآن متعدية تسري إلى الذين يعملون به. فما أشدَّ هذا الإنسانَ كفرًا بنعمة الله حيث مُنحَ فرصةَ التقدم والازدهار، ولكنه أعرض وهرب من هذا الوحي العظيم!

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٩﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢١﴾

التفسير: أي هلاّ فكّر الإنسان مِن أيّ شيء خلقه الله تعالى! ولأي غاية عظمى أرسله إلى الدنيا!

إن من أروع أساليب القرآن أنه – من ناحية – يُبرهن على عظمته فيقول للإنسان في استغناء: إذا آمنتَ فنفسك تنفع، وإذا كفرتَ فنفسك تضرّ، ومن ناحية أخرى يسعى بمنتهى الحب واللطف ليعود بالإنسان إلى الصراط المستقيم، شأن الأم الرؤوم التي لا تتمالك نفسها من فورة عواطف الحب والرحمة لابنها الذي لا يطيعها، فتقول له في سخط: ما لي ولك؟ لقد أمرتك بما فيه نفعك، ثم بعد وقت يسير تسترضيه وتدعوه لتناول الطعام، وتسعى جاهدة ليطيعها بطريق آخر. كذلك يبدي الله تعالى هنا استغناءً فيقول: قُتل الإنسان ما أكفرَه! إذ عرضنا عليه كتابا عظيما كالقرآن، ولكنه أعرض عنه وتلكأ. ولكنه تعالى عاد فقال بعدها فورا: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، وكأنه تعالى أخذ يلاطف الإنسان ليعود إليه حيث قال: ألم يفكّر الإنسان كيف خلقه الله؟ خلَقه مِن نطفة، أي من قطرة حقيرة، ثم لم يتخلّ عنه بعد خلقه، بل قدّرَه. وقال صاحب المفردات عن قوله تعالى ﴿فَقَدَّرَهُ﴾: إنه "إشارة إلى ما أوجده فيه بالقوة، فيظهر حالاً فحالا إلى الوجود بالصورة".

إذًا، فقوله تعالى ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ يعني: أنه تعالى خلق الإنسان، ثم جعل فيه كفاءات وقدرات لا تزال تظهر عند الحاجة بحسب مقتضى الحال. وهذا إشارة إلى أن الله تعالى قد جعل للإنسان مجالا واسعًا للتقدم وللرقي.

ثم يقول الله تعالى ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.. أي إذا كان الله تعالى قد جعل لرقي الإنسان مجالا واسعًا من ناحية، فإنه من جهة أخرى قد أودعه كفاءات عالية لا تلبث أن تظهر عند الحاجة، فلا تصعب عليه تقديم أي تضحية، بل يجد الأمر سهلا يسيرا.

الواقع أن الله تعالى قد خلق الإنسان بحيث إنه إذا عقد العزم وصبر، سهل عليه كل شيء، واجتاز الصعاب الكبيرة بكل يسر مستخدمًا ما زوده الله تعالى من كفاءات. يقول الناس إن العادة شيء سيئ، ولكن الله تعالى يبين أنها فضل من أفضالنا؛ لأن الإنسان إذا اعتاد عملا، لم يجد صعوبة في إنجازه لكثرة الممارسة، فثبت أن العادة شيء جميل، شريطة أن لا تكون في أمر قبيح. فمثلاً أداء الصلاة يشق كثيرا على الإنسان في البداية، ولكنه إذا واظب على أدائها لأيام اعتاد عليها، وأصبح أداؤها سهلا جدًّا. كذلك يجد المرء الصيام صعبًا في أول الأمر، ولكنه إذا اعتاده لم يجده صعبا. والحال ذاته بالنسبة إلى الصدقات والتبرعات وغيرها من أعمال الخير. لقد رأينا أن الذين يعتادون على إخراج الصدقة لا يجدون راحة إذا لم يخرجوها كل يوم ولو كانت قليلة. وكان من عادة العرب ألاّ يأكلوا إلا إذا أشركوا أحدا في طعامهم، وقد رسخت هذه العادة فيهم بمرور الأيام بحيث إنهم لم يستطيعوا تناول الطعام إذا لم يُحضروا أحدا على خوانهم، حتى إنهم كانوا يبحثون عمّن يشترك معهم في الطعام. وإشارةً إلى أهمية العادة، يقول الله تعالى هنا ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.. أي هناك مجال واسع جدًّا للتضحية أمام الإنسان، وقد أودعنا فطرته أنه إذا شرع في القيام بعمل وجده صعبًا في البداية، ولكنه إذا واظب عليه وجده سهلا، ورغب فيه قلبه. فعندما يعمل المرء حسنة فإنه يرغب في ثانية، ثم في ثالثة، ولولا العادة لشقّ عليه القيام بحسنة واحدة أيضًا، ولكنه يعتادها شيئا فشيئا، فلا يخافها، بل يجد فيها لذة وسهولة. إنه يصلي فيعتاد على الصلاة، ثم يصوم فيعتاد على الصيام، ثم يخرج الصدقات فيعتادها، وهكذا لا يبرح يكتسب حسنة بعد حسنة، فيسهل عليه المضيّ قُدُمًا في الخيرات.

ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾

التفسير: أي أن من سنتنا أننا نتوفى الإنسان بعد ذلك.

لقد اعتبر الله تعالى هنا الموت كإحدى مِنَنه على الإنسان، لأن الحديث هنا عن مِنَنه وإحساناته على الإنسان حيث قال من قبل ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾، وبعدها قال ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾. وكأنه تعالى يقول هنا: يواظب الإنسان على فعل الخيرات باستمرار، حتى يأتي وقت نقول له فيه لقد تعبتَ من أجلنا كثيرا، فتعال نحيلك إلى التقاعد. إذًا، فالموت هو بمنـــزلة معاش التقاعد يتلقاه الإنسان من الله تعالى. الغريب أن الناس عندما ينالون معاش التقاعد من الدولة يشكرونها، ولكن إذا منحناهم معاش التقاعد أخذوا في البكاء لغباوتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾. والإقبار له ثلاثة معان: يقال أقبره: (١) جعل له قبرًا يُدفَن فيه؛ (٢) جعله ممّن يُقبَر؛ (٣) أقبرَ القومَ: أمَر أن يُقبَر قتيلهم (الأقرب). والمعنى الأول لا ينطبق هنا لأن كثيرا من الناس لا يُدفنون في القبور، كما لا ينطبق المعنى الثالث أيضًا، والمعنى الثاني هو الذي يطابق الآية في رأيي.. أي أن الله تعالى جعل الإنسان ممن يُقبَر. والحق أن هذه الجملة جزء من الدليل السابق، ولكن مجرد دفنه في التراب لا يكون جزءا من هذا الدليل.

ولا شك في صحة المعنى الذي نفسر به، نحن الأحمديين، هذه الجملة عادة، وهو أن القبر المذكور هنا هو ما يكون فيه الإنسان في عالم البرزخ، ولكن يمكن للخصم أن يقول إنه مجرد ادعاء إذ لا نرى أن كل من يموت يدخل في قبر في العالم الثاني، فكيف نقبل قولكم الذي لا يستند إلى دليل؟

وما دامت هذه الجملة جزءًا من الدليل السابق، فلا بد أن نرى شيئا من هذا الإقبار في هذه الدنيا أيضًا، وليس سبيله إلا أن نفسرها بأن الله تعالى جعل الإنسان ممّن يُقبَر.. أي أنه تعالى جعل من فطرة الناس أن يدفنوا موتاهم في القبر. وإذا كان بعضهم يحرقون موتاهم ويجعلونهم رمادًا، فليس سببُه أيضًا إلا لأنهم لا يحبون أن يلقوا جثثهم هكذا لتتعفن وتتآكل. وإذا كان البعض يُطعِمون الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة جثثَ موتاهم، فهم أيضًا لا يفعلون ذلك إلا لأنهم يرون أن احترامهم للموتى يقتضي هذا. فثبت أن احترام الموتى من فطرة الإنسان، وهذا هو

معنى قوله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾، أي لا أحد من الناس يتحمل إهانة موتاه. فبرغم أن الميت جثة هامدة، إلا أن الفطرة الإنسانية لا تتحمل أن يُلقى الميت في العراء؛ بل إن كل إنسان – أيا كان دينه وملته – يبدي له تكريمًا بأسلوبه الخاص. وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان، وإلا فليس هنالك فرق بين الاثنين في الأكل ولا في النوم ولا في الموت. إن الحيوانات تختلف عن الإنسان في أنها لا تدفن جثث موتاها، وليس بين الناس مَن يتصرف مع جثث موتاه بما لا يليق بتكريمها.

وإن هذا الإعزاز والتعظيم الموجود في فطرة الإنسان تجاه الموتى لدليل على أن حياته لا تنتهي بالموت. إذا كانت حياته قد انتهت بالموت، فما الحاجة لتكريم جثته؟ وأين التكريم أصلاً؟ والواقع أنه لا فرق لو أُلقيتْ جثته في العراء أو وُضعتْ في القبر. ولكن وجود عاطفة تكريم الميت في فطرة الإنسان لدليل على أن الحياة لا تنتهي بالموت. وكأن الله تعالى يقول هنا: نُقدِّم أمامكم هذا الدليل الفطري؛ فإنكم لا تلقون جثث موتاكم في العراء محقرينها، بل ترون احترامها المناسب ضروريًّا، لماذا تتولد في قلوبكم فكرة احترام موتاكم، إذا لم يكن هناك إمكانية للحياة بعد الموت؟ إن الموتى موتى في كل حال، ولا فرق بالنسبة لهم سواء أحرقتموهم بالكهرباء، أو في حطب من النار، أو وضعتم جثثهم في مكان معين لتأكلها النسور والحدآت. لم لا تعاملون موتاكم كما تعامل الحيوانات الأخرى موتاها؟ فمثلاً عندما يموت كلب فلا يخطر ببال الكلاب الأخرى أن تعامله معاملة خاصة، وإنما يظلّ ملقًى في العراء حتى تتعفن جثته وتتآكل. فلو كانت حياة الإنسان تنتهي بموته، لرمى الناس موتاهم في العراء كالحيوانات، ولكنهم لا يعاملون موتاهم هكذا، بل يكرمونها إكراما لائقا كلّ بطريقته. ولذلك يقول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.. أي أننا نميت الإنسان ونخلق في قلوب أقاربه الإحساس بكرامته، فلا يلقون جثته هكذا، إذ يرون ذلك منافيًا لشرف الميت واحترامه. هكذا يقدم الله تعالى الدليل من الفطرة الإنسانية على الحياة بعد الموت، ويقول: ما دمتم تؤمنون بتكريم الإنسان حتى بعد موته، وتروْن إعزاز جثته ضروريا، فثبت أن في قلوبكم إحساسًا بالحياة بعد الموت، وإن كان هذا الإحساس ضعيفًا. بيْد أن هذا الإحساس

الضعيف يكفي لتوجيه أرواحكم إلى أمر هام، ألا وهو السؤال عن سبب وجود عاطفة الاحترام في قلوبكم تجاه الميت. إن وجود هذه العاطفة الواضحة البارزة في قلوب الناس كافّة وعدم تحمل أي إنسان الإساءة إلى جثة قريب له، لدليل ساطع على أن الحياة لا تنتهي بموته، بل لا بد له من حياة أخرى تبدأ بهذا الموت. ولذلك يريد المرء ألا يقصِّر في تكريم صاحبه وهو يدخل باب الحياة الجديدة، بحجة أنه جثة بلا روح.

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

أنشر الله الميت: أحياه. (الأقرب)

التفسير: أي كان ينبغي أن تدركوا من هذا أن الله تعالى سيحييكم إذا شاء، وإلا فإن عملية الخلق كلها تصبح لغوًا وعبثًا. إذ كيف يمكن أن يقوم الله تعالى بهذه العملية الهائلة ولا يجعل فيها حكمة ولا غاية. إنه تعالى يخلق الإنسان من شيء حقير جدًّا، ثم لا يزال يطوّره حتى يُبلِّغه أعلى الدرجات، ويزوّده قدرات هائلة تتجلّى شيئًا فشيئًا بحسب ما تتاح له من فرص الرقيّ والتقدم. ثم إنه تعالى لم يزود الإنسان بكفاءات شتى فحسب، بل جعله يعتاد على عمله ليقوم به ببشاشة ويسر ونشاط. ولكنه عندما يبلغ ذروة رقيه، تظنون أن روحه تُدمّر وتُباد، مع أن المفروض أن ينال جزاءه بعد قيامه بهذه الأعمال البارزة بدلاً من أن تتعرض روحه للفناء الأبديّ. ثم إن الله تعالى قد جعل في جبلّتكم أنه إذا مات أحدكم تكرمونه وتعززونه، وتُخرجونه من بينكم بمنتهى التكريم والتعظيم.. كلٌّ حسب طريقته، مما يدل بوضوح أنكم تؤمنون في قرارة نفوسكم أنه لا بد للإنسان من كرامة بعد موته أيضًا، وتوقنون أن حياته لم تنتهِ بموته، بل هناك حياة أخرى تنتظره، وأن الله سيحييه إذا شاء. والغريب أنكم رغم إيمانكم بكل هذا تنكرون النتيجة النهائية أي الحياة بعد الموت. تعترفون أن خلق الإنسان لا يخلو من حكمة، بل إن تطوره من

حالة أدنى إلى أعلى الدرجات، وتزوُّدَه بكفاءات واسعة للرقيّ، وتوفُّرَ مجال واسع لتقدمه، ثم انكشافَ قدراته هذه عند الحاجة، ثم بشاشتَه ونشاطه في أعماله نتيجة اعتياده عليها، ثم احترامَكم لموتاكم.. كل ذلك دليل ساطع على أن هنالك نوعًا من الحياة بعد الموت، والغريب أنكم تقرّون بكل هذه الأمور، ثم تنكرون نتيجتها المنطقية.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

التفسير: أي أن الإنسان لم يُنفِّذ بعدُ ما أمره الله تعالى.

والحق أن قوله تعالى ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ إشارة إلى المعنى المذكور في قوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾، وقوله تعالى ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.. والمراد أنه كان لدى الإنسان فرصة القرب الإلهي وإصلاح عاقبته، ولكنه لم يؤدِّ واجبه هذا بعد. كان عنده فرصة ذهبية للترقيات الروحانية ومجالٌ واسع للتقرب إلى الله تعالى، ولكنه للأسف لم يؤد واجبه كما ينبغي. وهذا هو الموضوع الذي أركّز عليه مرارًا في هذه الأيام، وأُنبِّه أفراد الجماعة إلى بذل كل ما في وسعهم لإيصال هذه الأمانة إلى أجيالهم التالية، حتى ييأس الشيطان للأبد، وتتلاشى إمكانية غلبة الكفر في الدنيا مرة أخرى. حتى اليوم ليس هناك أُمة ركزت على حماية أجيالها من هجمات الشيطان، ولو وُفقتْ جماعتنا لأداء هذا الواجب فسيكون عملا منقطع النظير.

وهذا ما يؤكده الله تعالى في هذه الآية ويقول: من المؤسف أن الإنسان لَمّا يقْضِ ما أمره، أي أنه لم يُنفّذ بعد أمر الله تعالى. لا شك أن الناس قد بذلوا جهودا كبيرة لإصلاح أنفسهم فردًا فردا، ولكن حتى اليوم لم يهتم أحد بعد بالنهوض بالقوم كلهم والمضي بهم قُدمًا باستمرار، بحيث لا يبقى لسقوطهم إمكانية ولا لإغواء الشيطان لهم مجال. تأتي على أمة الرسول ﷺ أدوار مختلفة، فعسى أن يأتي عليها دور يؤدّى فيها هذا الواجب المذكور في قوله تعالى ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾. لقد بُذلت حتى الآن جهود فرديّة، وقد رأوا نتائجها أيضًا. لقد بذل الصحابة الجهود

ثلاثين سنة، ولكن تطرق الضعف إلى أجيالهم وذرياتهم، فلم يستمر هذا الخير. والآن عندنا فرصة ذهبية لنبذل الجهود لأداء هذا الواجب حتى يقوم الإسلام في الدنيا على صعيد الأمة، بحيث لا يبقى هناك احتمال لسقوطه، وهذا عمل لم يتم من قبل أبدًا. لا شك أنه قد بذلت جهود فردية، ولكن لم تُبذل جهود لغلبة الإسلام على الصعيد الجماعي بحيث يظل الخير متتابعًا متسلسلا في الأجيال. ولا يبقى هناك خطر تراجُع الإسلام مرة أخرى.

ويمكن أن يفسر قوله تعالى ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ بمعنى آخر، وهو أن الإنسان لم يتبوَّء بعد ذلك المقام العظيم الذي يمكن أن تحرزه القدرات الإنسانية، فلا بد من الاعتراف أنه لم يبعث بعد الشخص الموعود لكل الأديان الذي به يناط الوصول إلى آخر درجة من الرقيّ الإنساني، فلذا على الناس أن يهتموا بهذه النبوءة بجدّيّة بدلا من أن يحتقروها.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

التفسير: أي يأمر الله تعالى الإنسانَ أن ينظر إلى طعامه ويفكر كيف أننا اهتممنا بتربيته الجسمانية اهتمامًا كبيرًا؛ لقد أنزلنا لأجله الماء من السماء، ثم شققنا من أجله الأرض شقًّا، ثم أخرجنا منها حبوبا وعنبًا وقضبًا.

ورد في القاموس: القضبُ كلُّ شجرة طالت وسبطتْ أغصانها؛ والقَتُّ (الأقرب). والقَتُّ: الفِصْفِصةُ، وقيل: اليابسة (الأقرب). والفِصْفِصة: نباتٌ تعلُفه الدوابّ وهي

تسمى بذلك ما دامت رطبةً، فإذا جفّت زال عنها اسم الفِصْفِصة، وسُميت بالقتّ. حبُّها نحو الكِرْسنَّة، لكن فيه طول. (الأقرب)

ثم أخبر الله تعالى أنه أنبت زيتونًا ونخلاً وحدائق غُلْبًا. والغُلْب معناه: المتكاثفة الملتفّة أي تلتفّ أغصانها بعضها ببعض لكثرتها. ثم أخبر أنه أنبت فاكهة وعلفًا.

أما كلمة (أَبًّا) فهو: كلُّ ما تُنبت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه. (فتح البيان)

وقوله تعالى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.. أي خلقناها لفائدتكم ولفائدة أنعامكم.

توجد في القرآن الكريم آيات تتشابه لفظًا، وهذه الآيات مثال لذلك. فقد بيّن الله هذا المعنى من قبل في سورة النازعات بأسلوب آخر في قوله تعالى ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. أما في هذه السورة فقد عدّد الله تعالى نعمه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. والفرق الوحيد أنه في سورة النازعات قد عدّد الله النِّعَم السماوية عمومًا، أي أنه ذكر النِّعَم الأرضية، ولكن الهدف كان ذكر النظام السماوي، بينما هنا فإن التركيز على النظام الأرضي، وكأن سورة النازعات تشير الى النظام الأوسع الحاوي للسماوات والأرض، أما هذه السورة فتشير خاصة الى النظام الذي يتسبب في خروج النبات من الأرض. لقد بين الله تعالى في سورة النازعات أنه كما لا بد للأرض من وجود السماء، إذ لا يقوم النظام الأرضي بدون النظام السماوي، كذلك لا بد لكم من رفعة سماوية. ولو ظننتم أنكم ستتمكنون من إقامة النظام الأرضي من دون الرفعة الروحانية، فأنتم مخطئون. فكما أن وجود الأرض بغير السماء عبث، كذلك فإن النظام الجسماني من دون النظام الروحاني لغو وعبث. أما في هذه السورة فقد بين الله تعالى أن من الطبائع الإنسانية ما يتوافق مع القرآن الكريم، ومنها ما لا تتلاءم معه. فالطبائع المتلائمة مع القرآن

الكريم سوف تنجذب إليه تلقائيا، والأخرى لن تلتفت إليه. فسورة النازعات تتحدث عن موضوع مختلف عما تتحدث عنه هذه السورة، ففي تلك السورة ذكَر الله السماء لإلقاء الضوء على ضرورة الوحي، أما في هذه السورة فركّز على بيان أن بعض الطبائع متوافقة مع تعاليم القرآن وبعضها غير متوافقة، فالمتوافقة منها ستسارع إلى تصديق القرآن الكريم، وغير المنسجمة معه ستنفر منه. ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلا فقال: ترون أن الأرض تنبت الحبوب والعنب والشجر والزيتون والنخل والحدائق والفواكه والكلأ، فمنها ما يأكله الإنسان، ومنها ما يأكله الحيوان، والحال نفسه للطبائع الإنسانية، فالتي تتلاءم مع القرآن الكريم سوف تأتي إليه، والتي تتفق مع الكفر سوف تذهب إليه. وكأن الطبائع بنفسها تخبر عن الشيء الذي يتفق مع مزاجها، فمثلا يتوجه إلى العنب الإنسانُ لا الجمل، أما شجرة السَّمُر فيتوجه إليها الجمل لا الإنسان. لا شك أن الإنسان لم يعمل بالقرآن الكريم بعد، ولكنه سيضطر للعمل به. عندما يظهر نبات القرآن ويتجلى حسنه للعالم، فإن الطبائع المتوافقة معه ستسارع إليه. لا شك أن مثل هؤلاء قلّةٌ اليوم، ولكنهم سيدخلون في هذا الدين أفواجا حين ينكشف حسن القرآن على الناس. يوجد في الدنيا حبوب وعنب وزيتون ونخل وحدائق وفواكه وعشب وكلأ، فتتجهون أيها البشر إلى ما يتفق مع مزاجكم منها، وتتجه المواشي إلى ما يناسبها منها، كذلك فإن الطبائع الصالحة ستتوجه إلى القرآن والطبائع الفاسدة ستتوجه إلى الكفر.

واللافت للنظر أن معظم الأشياء المذكورة هنا هي مما يأكله الإنسان، وهي ستة أصناف (حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة)، أما التي يأكلها الحيوان فهي صنفان (قضبًا وأبًّا) فقط، وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن الكريم سيجذب أكثرَ الناس، وأن الكفر لن يجذب إلا أقلَّهم. وهكذا بيّن الله تعالى أن من الخطأ السؤالَ كيف يصبح الإسلام غالبًا؛ فإن الطبائع تسارع إلى الشيء المتوافق معها، فالطبائع المتلائمة مع القرآن الكريم ستتوجه إليه، شأن الإنسان الذي يتوجه إلى الحَب والعنب والزيتون والنخل والحدائق والفواكه، وأما الطبائع المتوافقة مع الكفر،

فستتوجه إليه شأن النَعم والدواب التي تتوجه إلى القضب والأبّ، لا إلى العنب والنخيل وغيرهما.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

الصاخّة: صخَّ الصوتُ الأذنَ: أَصَمَّها. الصاخّةُ: صيحةٌ تُصِمُّ لشدّتها؛ الداهيةُ. (الأقرب)

التفسير: لا شك أن هذه الحالة تعتري الناس يوم القيامة، إلا أن دراسة حياة الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – تكشف أن هذا الأمر قد وقع فعلاً في حياتهم عند نـــزول القرآن الكريم، حيث ترك الوالدُ ابنَه، والولدُ والدَه، والأمُّ ابنتَها، والبنت أُمَّها، والأخ أخاه، والحميم حميمه، والزوج زوجته، والزوجة زوجها، والقريب قريبه، ليلتحق بالنبي ﷺ ويدخل في طاعته، ولم يبالِ بأي حبّ ولا قرابة دنيوية إزاء مرضاة الله ورسوله، بل كان لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. لقد تفانوا في حب الإسلام والقرآن حتى نسوا الدنيا وعلائقها ومُتعها تمامًا. وما أكثرَ الأمثلةَ على تضحيات الصحابة في التاريخ، وما أوضحَها! وأذكر هنا مثالين منها فقط، وكنت قد ذكرتهما مرارا من قبل: أسلم فتى كان الابنَ الوحيد لأبويه، فبدآ يضطهدانه بشتى الوسائل، إلى أن فصلا أوانيه ومنعاه من مؤاكلتهما، ولكنه لم يرض بترك الإسلام حتى اضطر للهجرة بعد فترة من مكة. وبعد انقضاء مدة رجع إلى مكة، فقابله أبواه بجفاوة بالغة. لقد ظنّا أنه قد ارتد عن الإسلام، وظن هو أنهما قد امتنعا عن عداء الإسلام في أثناء غيابه، ولذلك يبديان له الحب نادميْن على ما فعلا به. وبعد هنيهة قالا له: يا بنيَّ، ألم ننصحك من قبل أن لا

تذهب إلى هذا الصابئ؟ وكانا يقصدان بذلك الرسول ﷺ، وهكذا أكدا له نصحهما بأن إسلامه كان خطأ كبيرًا، وقد أحسن صنعًا إذ ارتد عنه الآن. فقام من عندهما فورًا وقال: يا أبت ويا أمّي، أنتما والداي لا شك، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ منكما. كنتُ أظن أن قلبيكما قد لانا ندمًا على ما فعلتما، ولكن ظني قد خاب. إذا كنتما تريدان الاحتفاء بي بشرط أن أتخلى عن محمد ﷺ، فاعلما أن هذا مستحيل. إن محمدا ﷺ هو أبي وهو أمي الآن، ثم خرج من عندهما ولم يرهما بعد ذلك حتى الموت.

ثم فَكّروا في حادث تلك المرأة من المدينة التي سمعتْ شائعة استشهاد الرسول ﷺ في غزوة أحد، فخرجتْ من بيتها كالمجنونة، فلقيها المسلمون العائدون من ساحة القتال واحدًا تلو الآخر، فقال أوّلهم: قد استُشهد أبوك في الحرب، وقال الثاني: قد استُشهد زوجك أيضًا، وقال الثالث: قد استُشهد أخوك.. فكانت تقول في كل مرة: لا أسألكم عن أبي ولا عن زوجي ولا عن أخي، أَخبروني ماذا فعل رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنه ﷺ بخير بفضل الله تعالى، فقالت: إذًا فكلُ مصيبة بعده جَلَلٌ.. أي صغيرة. (السيرة لابن هشام، الجزء الأول، غزوة أحد)

باختصار، نرى في حياة الصحابة الكرام مشهدًا هو تحقيق لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. ونجد إزاء ذلك نفس الحماس في الكافرين أيضًا، حيث كان الأخ يهاجم شقيقه المسلم في الحروب، وكان الأب يسارع إلى قتل ابنه، وكان الأخ يتقدم لقتل أخيه، غير مكترث لقرابته وعلاقته به، كأنهم ليسوا من جنس واحد. كان المؤمن يقول لا علاقة لي ولا شأن لي بكافر، وإنما صديقي من هو مؤمن، وكان الكافر يقول لا علاقة لي بالمؤمن، وإنما صديقي هو الكافر.

إن علامة الصاخّة هذه تتجلى عند ظهور الدين الحق. فلا يحتمل بعده أحد أي نوع من المداهنة أو النفاق، بل يتميز الكفر والإيمان بوضوح. ولكن لا توجد هذه العلامة المميزة في الدين الباطل، ولا في قوم يصبحون جزءاً منه، ومثاله المسلمون الأحمديون غير المبايعين حيث يصلّون وراء المسلمين غير الأحمديين خلافًا لتعاليم

المسيح الموعود عليه السلام، ويتزاوجون معهم دونما تردُّد، مع أن صوت الله هو الصاخّة، فإذا انطلق هذا الصوت فلا بد أن يترك الأخ أخاه والقريب قريبه لوجه الله تعالى.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

مُسفِرة: مضيئة؛ مُشرِقة، يقال: أسفر الصبحُ: أضاء وأشرقَ. وأسفرَ وجهه: حسُن وأشرقَ. (الأقرب)

مستبشِرة: استبشرَ: فرِح وتلقَّى البشرى (اللسان). فالمستبشِرة يعني أنهم يكونون فرحين، كما سيتلقون بشارات بمزيد من الفتح والغلبة والنصر.

التفسير: أي ما دام المؤمنون والكافرون فريقين مختلفين، فلا بد أن تكون معاملتنا معهم أيضًا مختلفة. فالذين يؤمنون بوصايانا سنعطيهم جزاءهم، وأما الذين كفروا بها فنعذبهم، فيومئذ تكون بعض الوجوه مضيئة جميلة ضاحكة فرحة وتتلقى البشارات.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤١﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

غَبَرة: الغَبَرة: الغبار. (الأقرب)

تَرهَقهم: رهِق فلانًا: غشيه ولحقه. (الأقرب)

قَترة: القَترة: الغَبَرة، وجمعُها قَترٌ. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه سيُنفخ في الصُّور من عند الله من السماء حين يحين هذا التفريق بين الكفر والإسلام، فيصبح المؤمنون في طرف، والكافرون في طرف آخر؛ فريق يحبون بساتين الإيمان وينذرون أرواحهم في سبيل الله، وفريق يرضوْن بحشيش الكفر وكلئه.. فريق من الإنس يتوجهون إلى العنب والنخيل، وفريق من الأنعام يتوجهون إلى الأعشاب. هذا هو الموضوع الذي بينه الله تعالى في

هذه الآيات. يقول عز من قائل: هناك وجوه سيكون يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة.. أي سيكون هذا الغبار على وجوههم في أول الأمر، ثم يغطي هذا الغبار أبدانهم كلها، شأن الذبيحة التي إذا أُلقيتْ على الأرض للذبح اغبرّ وجهها أولاً، ثم إذا ذُبحتْ واضطربت اغبرّ بدنها كله. فكأن الله تعالى قد أشار هنا: أننا سنلقي هؤلاء الكفرة الفجرة على الأرض أولاً لذبحهم فتُرغَم وجوههم أولاً، ثم يضطربون بعد الذبح فتصبح أبدانهم كلها مغبرّة. إذًا، فهذه الآيات تخبر عن دمار كامل للكافرين.

أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

الكَفَرة: جمعُ كافرٍ، وكفَر الرجلُ: ضدُّ آمنَ. وكفَر نعمةَ الله: جحَدها وستَرها. وكفَر الشيءَ: ستَره. (الأقرب)

فالكافر هو: ١- مَن لا يؤمن، ٢- مَن يجحد نعمة الله، ٣-من يستر شيئا.

وورد في الأقرب أيضا: "الكَفَرةُ في جمعِ كافرِ النعمةِ أكثرُ استعمالا". (الأقرب)

الفَجَرة: جمعُ فاجرٍ. فجَر يفجُر الرجلُ فُجورًا: انبعث في المعاصي وزنى وفسق. وفجَر الحالف: كذَب. وفجَر فلانًا: كذَّبَه؛ عصاه وخالفه. وفجَر أمرُ القوم: فسُد. وفجَر فلان عن الحق: عدَل عنه. (الأقرب)

فالفجرة: ١- العصاة ٢- الحالفون كذبًا ٣- المكذِّبون لأحكام الله تعالى ٤- الذين يأتون أعمالا خليعة ٥- الذين فسد أمرهم ٦- المنحرفون عن الحق.

التفسير: أي اعلموا أن هؤلاء الهالكين هم الكفرة الفجرة. وكأنه تعالى يقول: ستعرفون من واقع الأمر مَن سيؤمن ومن سيظل مصرًا على الكفر والفسق والفجور. اليوم لا تستطيعون أن تخبروا مَن الذين سيؤمنون من أهل مكة ومَن الذين سيكفرون، ولكن عندما يُزرَع بستان الإسلام سيتوجه أناس منهم إلى العنب والنخيل والحبوب والزيتون والفواكه، بينما تتوجه الدواب منهم إلى الأعشاب

والعضاه. فمن توجه إلى العنب والنخل وغيرها، فاعلموا أنهم أُناس، والذين يتجهون إلى العشب أو العضاه ليأكلوا منها، فاعلموا يقينًا أنهم أنعام وشياه، وسوف يُذبحون، ويتغلب عليهم المسلمون يوما ما.